

١٠٣

الكتاب العربي السعودي



عبد الرحمن المعمر



البرق والبريد والهاتف
وصلتها

بالحب والأشواق والعواطف

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
جدة - المملكة العربية السعودية

الكتاب التاسع
٢٠١٧/٨/٢٦

Twitter: @abdullah1994



عبد الرحمن المعمر

الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
٢٠١٧

البرق والبريد والهاتف
وصلتها
بالحب والأشواق والعواطف

الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م
جدة - المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الناشر

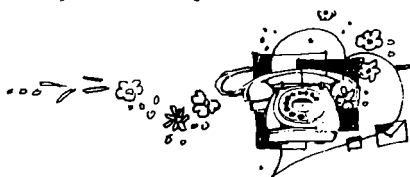
تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب. ٥١٥٥ - هاتف : ٦١١١١١١

الاهياداء

إلى القلوب التي تحفّق عندما يقرب ساعي البريد
ويزداد خفّفانها بسمع صوت الجيب ..
إلى الأيدي التي ترتجف رعدة وشوقاً وهي تفض
ختم الكتاب وتتلو آيات العتاب .
إلى كل ساهرو ساهرة .
إلى حاضني الهوائف في ظلمات الليل التي تشقها
سيوف البرق .
أدفع بهذه الكلمات وأقدم هذه الخطرات

عبد الرحمن المعمر



مقدمة

إن نظرة سريعة إلى الغربية، أو الحب، تطلعنا على أسباب تعلق المغتربين والمحبين بوسائل الاتصال المعهودة، وغير المعهودة مما يرقى إليه خيال المشتاق في ساعة من ساعات الأشواق.

ويجب ألا يغيب عن البال الدور الكبير الذي تضطلع به وسائل الاتصال المعهودة من بلّ أشواق المحبين، وإطفاء نار حنين المغتربين.

وحين يأتي الباحث وراء وسائل الاتصال التي يبحث عنها المغتربون أو المحبون، فإنه يذكر البريد، والبرق والهاتف، ويذكر الريح، والظيف، والبدر، والنجم، والشجر، والقَطَر، والتدى، وتنفس الصبح، وعسعة الليل، وربما عنت بباله أمور صغيرة جداً لا تعن للآخرين يراها ذات صلة كبيرة بمن يحب، فيسقط عليها الأشواق والعواطف.

في نهاية المطاف يتأكد للباحث أنه لم يحظ شيء في الدنيا باهتمام المحبين والعاشقين خاصة مثل ما حظى هؤلاء الثلاثة: البريد، البرق، الهاتف دون الوسائل الأخرى. فالمحب يريد أن يصل إلى محبوبه أسرع من البرق، ولا يريد لهذا البرق أن يكون حلباً، فتراه يسعى إليه سعياً حثيثاً ليجعل منه برقاً معه الغيث العميم والنفع الغزير، يطفئ بهاء الوصل نار الجوى وحرّ الأشواق.

والمتابع لأحوال المحبين والمغتربين يشاهد بعينه، ويسمع بأذنه عن البريد، ومكانته الكبيرة في نفوس هؤلاء الشيء الكثير، وطالما تردد ذكر البريد وتكرر اسمه في قصص الحب، وأفلام العاطفة، أو أغاني المحبين، وأناشيد المغنين، وهذه حكاية قديمة تكاد تكون أزلية.

وقد ردده المغتربون، وأحبه العاشقون، لأنه الوسيلة الإعلامية الأولى بين المحبين، وبين المغتربين، وحكايات بريد العشاق كثيرة معروفة، لا يسبقها إلا بريد المغتربين المهاجرين؛ وهم أيضاً عشاق لكن من نوع آخر.

وأكثر من هذا وذاك، دور الهاتف في إطفاء نار الأشواق والعواطف، فهو أكثر من شقيقه خطوة وحطاً في زماننا هذا. وإذا كان البرق رمزاً بين المحبين، وعلامة شوق ونقطة لقاء بينهما، وإذا كان البريد يحمل أوراقاً تفوح منها روائح الخللان وأخبار الأفراح والأحزان، إذا كان ذلك في البرق والبريد فإن الهاتف له قيمة كبرى في نقل صوت المحبين، وهمهماتهم وتأوهاتهم، وتنهدياتهم مدبجة بأحلى الأحاديث، موسقة بسقسقة الضحك، أو أنين الشجي والحنين.

عليه يسقط المحبون كثيراً من مظاهر الشوق والغرام، والحب والهيام، فهو إلى جانبهم دائماً، يتمسحون عليه، ويتقربون إليه، وإلى جانبه المزهار بريحتها وريحانها، وزهورها، وورودها المختلفة، فإذا رن جرسه فزعوا إليه بخفة ونشاط، وأمل سماع صوت الحبيب.

مكانه بين الحنايا وعلى الصدور. ويأتي صوت الحبيب هامساً، ويبدأ الكلام والسلام، والسماعة تكاد تدفع الآذان إلى داخل الرأس، والشفاه تكاد تقفز إلى داخل السماعة، وتبدأ القلوب بالخفقان، ويغص الحلقوم باليسير من الريق، وتتلثم الشفاه بالكلمات، وتتكرر وتضيق، ويعود المحبون إلى انتقاء الكلمات الخاصة من نسيج الأشواق، وعبر الحبيب الذي يتنسمه المحبون عبر أسلاك الهاتف معبرين عن الحب والعواطف.

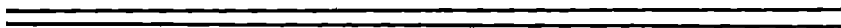
تلك أهم وسائل اتصال المحبين، ولكن ليس لنا أن ننسى الريح والطيף، ولو

أن حديث الريح أوسع وهو قديم بين المحبين ، فمنذ القدم البعيد كانت الريح بريداً تنقل العواطف ، وتوصل أشواق العشاق ، وتقوم بمهام أخرى ذكرها القرآن .

وسائل كثيرة يقوم بها المشتاقون والعاشقون بالغريزة والفطرة ، وأمور أخرى لا تدرك بالدرس والمران ، لكنها الأشواق والذكريات وليالي الفراق ، وعندها سنقف وقفة أنس ؛ ونظرة نلقيها على أدب البريد والبرق والهاتف ، هي روضة من الرياض العاشقة فوّاحة ، صدّاحة ، نريدها أنساً للمغتربين ، وأنساً للعاشقين في ليالي الحرمان .

وما هي إلا باقة من دوح أدبنا العربي الكبير ، فإن وقفت في قطفها ، وأدخلت الفرحة على قلوب العاشقين وخففت حنين المغتربين أكون قد أفلحت فيما سعت إليه من هدف في بيان أثر البريد والبرق والهاتف في تخفيف الأشواق والعواطف ، وإلاّ فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

المؤلف



البرق في الشعر العربي



البرق في الشعر العربي

اقترن ذكر البرق بالفأل الحسن وانتظار المطر وما يعقبه من خصب في الأرض وعرف العربي منذ الأزل سرعة ومض البرق فدعا بأن تمطر السماء ديار الحبيب فتخصب وتعشب، وتكرر ذكر الحجاز ونجد، وبغداد والشام واليمن، وسائر بلدان الجزيرة في أشعارهم، وجاشت خواطرهم بما تكن الصدور من هوى مكبوت وحب ملجوم:

إذا لاح لي من نحو بغداد بارق تجافت جنوبي واستطير هجوعها
سقى جانبي بغداد كل غمامة يحاكي دموع المستهام هموعها

وهتف الهاتفون (بالحجاز) وترددت هذه العبارة (سقى الله الحجاز وساكنيه) في كثير من الأشعار، فإذا ذكر الحجاز فاضت دموع المحبين، فالحنين إلى الحجاز والشوق إلى بطاحه ما انفك يثري الأدب بألوان من الشعر، ويغري الشعراء بشيء من القول.

فهذا أبو بكر العبدى المتوفى سنة ٥٨٠ هـ، وقد تمكن منه الهوى الحجازي فلا يستطيع له دفعاً ولا تحويلاً:

لي بالحجاز غرامٌ لست أدفعه ينقاد قلبي له طوعاً و يتبعه
يهزني البرقُ مكياً تبسمه إذا تراءى حجازياً تطلعه
ويزدهيني لقاء الوفد لحظة من جوه وحديث الركب أسمعُه

وفائح الريح مسكياً تأرجحه من طيب رياه ندياً تضرّعه
إلى أن يقول مخاطباً البرق :

قل للأحبة عني قول من حنيت هل حافظ عهدي ودي من حفظت له
أم هل تجرعه مما تجرّع عني وهل يهزاد كاري قلبه طرباً
على الوفاء لهم والشوق أضلّعه على التوى عهد ودّ لا أضيّعُه
في البعد كأس الأسي أم لا تجرّعه وتستهل كدمعي فيه أدمعُه

سرى البرق في أرض الحجاز فشاقتني وكلّ حجازي له البرق شائق
فواكبدي ممّا ألقى من الهوى إذا حنّ ألف أو تألف بارق

وهذا شاعر العربية الكبير فؤاد باشا الخطيب^(١)، يصف البرق بنوعيه السلبي والاسلبي ويحمد للعلم ما قدم للإنسانية من خدمة تحمل أسرار البشر حين لا يأمن بعضهم بعضاً :

حيى يا برق زمزماً والمقاما وإن لي بالحجاز، والدار داري
أنت نعم الرّسول يحمل شجوي نفخت فيك آية العلم روحاً
وأفاضت عليك سحراً حللاً كان في الغابرين سحراً حراماً
تركب السلك تارة وأوانا تطأ الريح واثباً والغماما

وهذا البرق النجدي طالما هيج أشجاناً، وأبكى عيوناً، وفضح المتجلدين فتردد

(١) فؤاد بن حسن بن يوسف الخطيب، ولد في قرية شحيم قرب بيروت ودرس في الجامعة الأمريكية ثم درس في يافا وفي الخرطوم، وتولى تحرير جريدة (القبلة) في مكة ثم عيّنه جلالة الملك المرحوم عبدالعزيز آل سعود، وزيراً مفوضاً ثم سفيراً في كابل وفيها توفي ونقل إلى بلدته وفيها دفن سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ .

ذكر نجد والوجد النجدي في الأشعار، حتى قال عمر بن الفارض إمام الغزل الصوفي،
وشاعر الزهد والتنسك:

أوميض برق بالأبريق لاحاً أم في ربي نجد أرى مصباحاً
أم تلك ليلي العامرية أسفرت ليلاً فصيرت المساء صباحاً
يا ساكني نجد أما من رحمة لأسير صب لا يريد سراحاً

وهذا الإمام العظيم مفسر القرآن الكريم الإمام الزمخشري صاحب الكشاف
—رحمة الله عليه— يكتوي بنار الحب النجدي:

أضاء لي بالكلوى والقلب متبول نجد ي برق بنار الحب موصول
كأن ومضته من ناره قبس والخذ مئي بماء الشوق مطلول

ومن شعر بعض الأعراب النجدين، وكان مقيماً بأرض الشام فرأى البرق
فذكره نجداً، ومن بنجد:

ألا أيها البرق الذي بات يرتضي ويجلود جي الظلماء ذكرتي نجداً
وهيجتني من (أذرعاً) (١) وما أرى لنجد على ذي حاجة طرباً بعداً
ألم تر أن الليل يقصر طوله بنجد وتزداد الرياح به برداً

وحين يتحدث الشعراء عن ثغور الحسناوات، يقرنون بين الأقاحي في مباسمها
وبين البرق في لمعانه في وصف تصويري يعرج فيه الشاعر أحياناً إلى المذاق المعسل؛
وهذا ممزوج عند أغلب من يلجأ إلى هذه الصور، وفي هذا المعنى يقول ابن خفاجة
واصفاً مبسم محبوبته:

بات بها مبسم الأقاحي يرشف من طللها رضاها
ومن حفوف البرق فيها ألوية حمّرت خضابها

(١) من مناطق حوران في بلاد الشام.

و بعضهم الآخر يجد في البرق مثيراً للأنفعالات ، مهيجاً للأشجان والذكريات ،
فيحنّ ويشتاق إلى الحبيب ، وكأن هذا البرق رابط للذكرى ، ومثير للواعج الشوق ،
يذهب بالنوم والكرى ، و يطيل السهر والسّهد :

أبى البرقُ إلا أن يحنّ فؤاد ويكحلّ أجفانَ المحبّ سُهادُ

و بعضهم الآخر يربط بين الريح والبرق في بيت واحد ، الريح عنده تحمل معاني
الوصل والشوق وطيب سلام المحبوب ، ويأتي البرق فيشعل في القلب نار الغرام
والهيام :

أفي ما تؤدّي الرّيح عرف سَلام ومما يشبّ البرق نار غرام

و يأتي الشعراء بمسلمات علم النفس ، ونظريات كمنظريّة التعلّم المنعكس ، أو
نظريّة «بافلوف» في سيلان ريق الكلب ، والقصة طريفة وبسيطة بفافلوف العالم
الروسي يأتي فيجري تجربته على كلب ولمدة طويلة ، يدني الكلب ثم يخرج جرساً
فيقرعه مع إظهار قطعة لحم يراها الكلب فور صدور صوت الجرس ، فيسيل ريقه ،
وتكرر العملية عدة مرات ، و يصل الأمر بالكلب إلى حد يسيل معه ريقه بمجرد سماع
صوت الجرس .

هذه النظرية التعليمية عرفها شعراء الحبّ قبل بافلوف بزمن بعيد مع الفارق في
الموضوع ، والموقف ، فكلما أومض البرق لَماعاً ، تذكر الشاعر أحبابه :

ما أومضَ البرقُ لَماعاً على أضْمٍ إلا تذكرتُ أحبابي بذي سَلَم

وتسري نظرية التعلّم المنعكس فتجاوز قضية التذكر والذكرى ، لكن بوصف
مغاير يصل معه وصف ابتسامة المحبوبة إلى تصوير البرق ، فتصبح بسمتها مَجَلْبَةً
للبرق ، والمعنى بسيط في صورته على حد تعبير البلاغيين :

و يقول شاعر مدنف واصفاً الابتسام :

إذا ابتسمت تلاًّلاً ضوءَ بَرَقٍ تهلّل في الدجّة ثم دأماً



و يصف آخر ابتسامة حبيته :

والبرقُ قد يبدو حينَ يبسُمُ ثَغْرَهَا فيضيءُ سقْفُ القصرِ الجدران

و يتغزل ولهان هيمان في مالكة قلبه ، فيقول :

وبيضاء مكسال لعوب خريدة لذيذ لدى التمام التزامُها
كأن وميضُ البرق بيني وبينها إذا حانَ من بعض البيوت ، ابتسامُها

وكثر في الشعر العربي وصف مبسم المليح وأسنان الحبيب إذا ضحك بالبرق في
لمعانه و بياضه وسرعة ومضه :

أوجهٌ تجلَى في ثيابك أم بدُر وليلٌ على متنيكَ ذلك أم شعُرُ
وإيماض برق أم شفار صوارم بدت أم سهام من لحاظك أم سحرُ
ونهدان أم رمانتان طباهما صوانع ما لا تصنع اللدن السُّمُرُ

وإذا ذكر البرق وما يفعل بالمحبين من تهيج العواطف واستثارة الذكريات برز
البرق اليماني فشعراء اليمن ، من أكثر شعراء العرب ذكراً للبرق والمزن والسحاب .

فهذا الإمام السيد محمد بن اسحق^(١) :

أيا بارق الجرعاء هل الجزع ممطور؟ وهل بالغواني ذلك الربع معمور؟
وهل ذلك الروض النضير نضارة بعين الرضا من ساكني السفع منظور؟
وهل كسيت فيه الغصون قطيفة مطرزة خضراء أزهارها نور؟

إلى أن يقول :

سقاء الحيا طول المدى فهو جنة لأن الحسان اللاعبات به حور

(١) محمد بن اسحاق بن أحمد ، نازع الإمام المتوكل القاسم بن الحسن في الإمامة وكذلك الإمام المنصور الذي تغلب عليه واعتقله ثم أفرج عنه ، ومات سنة ١١٦٧ هـ . وعنه تحفة المشتاق شرح أبيات المولى محمد بن اسحاق لجهول . انظر مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن : ٣٤٧ .

كواكب لا يفترون عن حرب عاشق بتدبير رأي فيه للصب تدمير
 يجهزن جيشاً لا انكسار لحزبه وما هو إلا لحظ عَيْن وتفتير
 وللشاعر اليميني شعبان سليم (١)، المتوفى سنة ١١٤٩ هـ، يذكر البرق في موقف
 وداع الأحباب:

يا برق أية لاعج وولوع هيجت بين جوانحي وضلوعي
 أذكرتني بالليل ومضك موهنا شق الجيوب بموقف التوديع
 حيث التقى الجمعان وانتهب الهوى ألبابنا وأذلت ماء دموعي

و يبدو أن البرق اليماني كان مضرب المثل بين بروق الأمصار وكثيراً ما يكون
 رجاء أمل، فيأتي به الشعراء تميهداً لعطاء يرجونه من الممدوح.

كان سلمة بن عيَّاش العامري (٢)، مولي لبني عامر بن لؤي، والناس يعدونه
 منهم لجلالته وعلمه، وكان صديقاً لمحمد وجعفر ابني سليمان بن علي بن عبدالله بن
 العباس لا يفارقهما، وكان ذا مروءة، فلزمه ذئبٌ فبلغ ذلك محمداً وجعفرأ، فقضياه
 عنه، فقال (٣):

أرقتُ فطالت ليلتي بأبانٍ لبرق سرى بعد الهدؤيمانٍ
 ومازلت أرجو جعفرأ أو محمداً لأفضل ما يُرجى له أخوانٍ

(١) شعبان سليم بن عثمان حاسكي الرومي الأصل، ولد بصنعاء سنة ١٠٦٥ هـ وكان تركياً. انظر: مصادر
 الفكر العربي الإسلامي في اليمن: ٣٤٤.

(٢) سلمة بن عيَّاش شاعر بصري من مخضرمي الدولتين، وكان يتدين ويتصون، انظر الأغاني ج ٢١: ٨٤—
 ٨٦.

(٣) المصون في الأدب: ١٦٤.

وقال الشهاب محمد بن عبد الملك العزازي من أهل القرن السابع الهجري: (١)

دمي بأطلال ذات الخال مطلول	وجيش صدري مهزوم ومغلول
بانوا فلا خبر عن بان كاظمة	ولا حديث عريب الجزع منقول
يا برق كيف الثنايا الغر من أضم	يا برق كيف لي منهن تقبيل
ويا نسيم الصبا كرر على أذني	حديثهن فما التكرار مملول

و يرى الشريف المرتضي (٢) سنا البرق في صفحات السماء مبدا ظلمتها، وظلمة قلبه، و يهيج قلبه متأججاً بنار الهوى مكتوياً بحر اللظى، و يستهدي به في ظلمة النفس والفضاء، و يتخذ وميض البرق للخداع والتضليل، يقول:

جلب البرق لقلبي	إذ سرى برحاً طويلاً
سل للعينين في جنح	الدجى سيفاً صقيلاً
وهداني في سرى الليل	وقد جزت السبيل
وأراني من بعيد	ذلك الحي الحلولا
وخياماً حالهن	الحسن صعباً وذلولا
لم أزل أسأل فيهن	على الفقر بخيلاً
وعزيزاً صرت في الحب	له عبداً ذليلاً
كلما استبدل متي	لم أر منه بديلاً

ولا يرى الشاعر نفعاً للمعتربين تقدمه همسات الهاتف، في الوقت الذي لا يكف فيه البرق عن دفع الحنين، وتوليد الشجى والأنين، ولا نفع لهم حتى من البريد الذي يبلى القلب، و يريح الأعصاب، فيقول:

وما نفع النائن همسة هاتف ولا كف برق شوقهم وبريد (٣)

(١) انظر قصة الأدب في اليمن.

(٢) علي بن الحسين المتوفى سنة ٤٣٦ هـ شقيق الشريف الرضي، من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب، له كتب كثيرة مطبوع أغلبها.

أنظر: روضات الجنات: ٣٨٣، ميزان الاعتدال ٢: ٢٢٣، إرشاد الأديب ٥: ١٧٣.

(٣) وحي الفؤاد.

وهذا الشاعر السعودي الأستاذ فؤاد شاكر يذكر فضل البرق في قصيدة ألقاها
بالطائف عام ١٣٦٢ هـ مهنتاً جلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز بتسمية الأمير بندر
نجل جلالة :

مشى البرق مختالاً ببشره يهتف	يكاد بما فيه من البشر يغرف
مشى فتلقته نفوس تطلعت	حنيناً فأدناها إليه التلهف
طوى البید حتى حلّ منّا مكانه	لدى كلّ قلب نجوه يتشوف
فما هو إلا أن سرى فتدافعت	جوارحنا تصغى إليه وترهف
فكادت قلوب القوم قبل جُومهم	جموعاً إلى أرجاء بابك تدلف
يبشّرنا والبشریات عزيزة	بشبل له في أجمة الأسد مألّف
تجلّت به في (بندر) عبقرية	تألّق فيها حسنه حين يوصف (١)

ولا يسعني قبل أن أختتم حديثي عن البرق إلا أن أشير إلى كلف الشاعر
الجاهلي خاصة - بلمعان البرق، فكأنه لمعان السيوف أو سيل الدموع، والمياه،
والآل، قال زهير بن أبي سلمى:

كأن بريقه برقان سحلي جلا عن متنه خرص وماء
بل ولمعان الیدین، كقول امرئ القيس في معلقته :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلمع الیدین في حَبِيٍّ مكلَّلٍ

وكم اتخذ وميض البرق للخداع والتضليل، فقد ذكر الأستاذ ودیع ديب في بحثه
عن (المرأة في حياة المعري) أنه لم يعرف شاعراً قبل أبي العلاء رأى في انحباس البرق
عن اللمعان خدعة يراد بها تضليل المحبين .. لقد أبى البرق أن يضئ السبيل إليها

(١) تسايح قلب

وهو على أشد ما يكون من اللهفة والغيرة إلا أن خديعته هذه لم تفت بصيرة الشاعر البصير:

أرحتني فأرحت الضمر القودا والعجز كان طلابي عندك الجودا
وقد أنست إلى حلمي وأوحشني كَرَّ العواذل تأنيبا وتفنيدا
ردي كلامك ما أملت مستمعا ومن يملّ من الأنفاس ترديدا
باتت غرى التوم عن يميني محلة وبات كوري على الوجناء مشدودا
كأنه غار منا أن نصاحبه وخاف أن نتقاضاك المواعيدا
من يخبر الليل إذ جثت حنادسه والرحل عني لما طلّ أوجيدا
أنسى أراح لأصوات الحداة به وللكائب يخطبّن الجلاميدا

وللشاعر فرنسيس المراس: (١)

تكهرب القلب من برق الطل فغدا يجاذب العشق لكن قط ما دفعا

وللشاعر الجهر عزيز أباطة (٢) من قصيدة له بعنوان (أشواق) وهو يسائل،
و يرقب الأنباء و يتسقط أخبار الحبيب:

وأسأل البرق هل وافت نوابضه والطائرات أفيها عنك أنباء

والشاعر محمد هاشم رشيد يمهّل الحادي و يطلب منه أن يوقف الركب، فقد رأى
وميض البرق في نجد، وهذا له معناه عند الشاعر فيه دواء للأشواق، وها قد حان
وقت الدواء، يقول (١):

(١) فرنسيس بن فتح الله المراس متوفى سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م له نظم كثير، وله: «مرآة الحسناء» ديوان منظوماته، مطبوع.

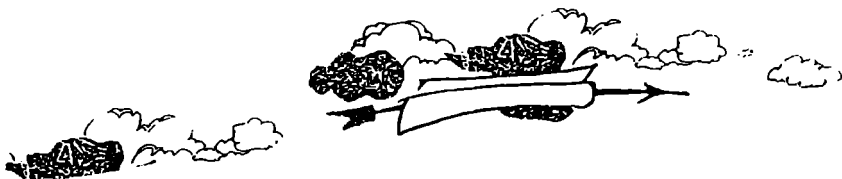
(٢) عزيز بن محمد بن عثمان أباطة له دواوين كثيرة أهمها: آتات حائرة، وديوان، ومسرقيات منها: العباسة، «قيس ولبنى» وتوفى سنة ١٣٩٣ هـ.

تمهل أيها الحادي وقف .. إننا على وعد
ألم تبصر على الوادي وميض البرق في نجد

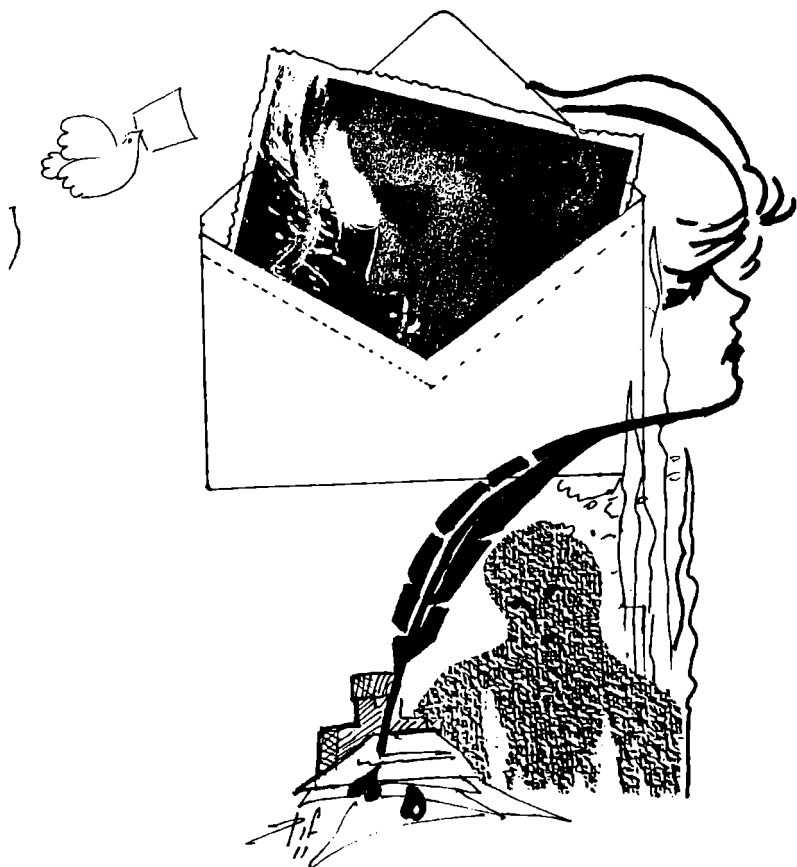
تمهل .. حان أن نروي من الأشواق .. قلبينا
وحان اليوم أن نطوي أسي .. قد هد روحينا

ليالي البعد قد طالت وطال .. سرى المحبينا
وما بقيت .. وقد حالت سوى الذكرى .. بأيدينا

وهكذا وبعد هذا الاستعراض لنماذج، وأنماط من الشعر العربي قديمه ووسيطه وحديثه، نلاحظ أن الشاعر العربي منذ مئات السنين قد سبق (ماركوني) مخترع جهاز (اللاسلكي) في الاهتمام إلى استغلال البرق، وتحميلة السلام ومساءلته عن المنازل، والأحبة والديار ولا غرابة في ذلك أيضاً، فقد سبق الشعراء العرب الدولتين العظميين أمريكا وروسيا في اجتياز الفضاء والصعود إليه عبر الخيال المؤجج الطموح! ..



(١) من ديوان (في ظلال السماء) شعر محمد هاشم رشيد.



البريد في الشعر العربي



البريد في الشعر العربي

هل سبق أن اغتربت؟ هل سبق أن اقتلعت من تربتك بعيداً؟ هل سبق أن ذرفت الدموع شوقاً، وولهاً، وجباً، وعطفاً؟

هل سبق أن اختنقت حلاقيمك بالعبرات، وامتلاأت عيونك بالدموع؟

أم هل حشرج صدرك يوماً بالآهات وتالت عليك الزفرات والعبرات؟ ..

إن عشت تلك اللحظات، وعانيت من آهات المغترين وزفرات المشتاقين فإنك ستكون أكثر فهماً للأشواق التي يبثها المولعون بالبريد الحبيب المحب، والغريب المغترّب.

وهذا البريد قديم قدم الشوق والحنين، قديم قدم الرحيل والسفر والذكريات؛ وهل ينسى الإنسان ذكرياته وهي ماضيه وامتداد مستقبله؟

و يأتي ليل المحين فتتحرك صور الماضي، ويقوى أملك بالوصول، ثم يأتي عليك النهار فيشغلك العمل، ويدفعك الأمل ثم تتجه إلى البريد تبحث عن ذاتك الضائعة عن شطرك الآخر! ..

وتنقطع منك أخبار المحبوب، وتصبح عرضة لنار الأشواق، وتعود إلى أوراقك القديمة الجديدة.. تشتم منها ريح المحبوب، وتنظر إلى الأوراق التي لامستها أنامل الحبيب وأودعها نظراته فتبحث عن العيون بين السطور...

هذه الصورة تحتاج إلى متخصص بعلم النفس، ولست ذلك المتخصص، لكنها تحتاج إلى رقيق العواطف يدركها ورقيق الأشواق يصورها، وهذا متوافر لكل العاشقين الهائمين، وهل في العشق من باسي ما مَرَّ مثل الهوى شيء على رأسي — على

حد قول أبي نواس—.

وعلى كل حال فحديث نشأة البريد مرتبط بنشأة العلاقات الإنسانية منذ الأزل ، وأنا لا أريد أن أطيل في سرد قصة البريد ، ونشأته وبداءته ومعرفة العرب له ، فذلك مرجعه كتب التاريخ وما حوت من قصص تدوين الدواوين ، ومن بينها (ديوان البريد) .

ولسوف أقصر حديثي وأحصره في البريد ، وفرح الناس به وخاصة ذوي الأشواق الملتهبة ، والنظرات القلقة والعواطف المثلثة إلى ما يحمله الموزع بيده من أغلفة تحوي بداخلها عبارات كتبت بمداد من دم القلوب ودمع العيون وذوب الوجدان .

يقول الأستاذ أحمد أمين (ليست قيمة الخطابات في وزنها ولا عددها ولكن قيمتها في عواطفها فكلم خطاب حمل في طياته أسمى عواطف الحب وأبلغ عبارات الغرام لونه ما فيه من آيات الأدب الخالد ولو أحيى للمختبر وحلل لتقطرت منه دماء القلوب وعصارة الألفدة ..) .

ومن عجيب أن البريد يحمل في ثناياه نغمات موسيقية مختلفة التوقيع بأكثر مما تختلف نغمات العود والقانون . فهذه نغمة وصل سارة إلى أقصى حدود السرور ، وهذه نغمة هجر محزنة إلى أقصى غايات الحزن ، وبين هذه وتلك نغمات لا عداد لها بين السرور والحزن والقبض والبسط فغزل رقيق وعتاب لاذع وقطيعة مفجعة وما شئت من لعب العواطف وتقلبات القلوب^(١) .

وهذا شاعر ولهان عاشق يدير الحوار بينه وبين كتاب جاءه من محبوبته ويسأله كيف رأى وجهها ، وكيف غادرها ، يقول :

لقلبي الخفاق قلباً خفق	كتابها قد جاءني حاملاً
في أسطر مثل سواد الغسق	والتمعت فيه نجوم المنى
يلوح كالزهر لا كالورق	وأعرف القبلة في موضع
كالصدر للصدر دنا فاعتنق	وكم به سطر إلى آخر

(١) فيض الخاطر جـ ٢ .

وكم به معنى أنام الجوى وكم به معنى أتى بالأرق

* * *

سألته كيف رأى وجهها فقال: جل الله فيما خلق
قلت: وذاك الخد لما استحي فقال: مثل الفجر فيه الشفق
قلت: وذاك الشجر ما أمره فقال: لما ذكرتك (انطبق)

* * *

يا ثغرها فيك نسيم الندى فكيف قلبي في نذاك احترق

* * *

أما الشاعر «حكمت حسن» فيحمل البريد إلى المحبوب عواطفه وأشواقه وذوب
قلبه، و يتضرع إلى الحبيب بالرفق بفؤاده الكبير:

يضمخ شوقي رسائله وتنضح بالحب أشعاره
ويحملني لطف الذكريات إلى واحة ثرة نائية
تزينها زاهرات النجوم وتنفحها الرقة الحانية
يساهرها قمر عاشق تطيبها نسمة سارية
أراك تجوين آفاقها كأنك حورية سامية
فيعبر حبك في خاطري عبور الرؤى السمحة الواعية
ويغمرنني ببهي المنى ويمنحني العيشة الراضية

* * *

أحبك حب الندى للشذى على مبسم الزهرة الغافية
وحب الفراش لنور الشموع وحب النواير للساقية
وحب العرائس للياسمين وحب العناقيد للدالية
وحب المنازل للشرفات وحب المضارب للبادية
كأنني بدونك .. دنيا أسي بلا قمر مشرق خاوية
محيط بلا لجة تجتلي سماء بلا زرقة صافية
كتاب بلا فكرة جزلة قصيدة شعر بلا قافية

* * *

بريدي إليك أحله تلهف قلبي وأشواقية
 وذوب فؤادي .. فرفقا به فؤادي الكسير، ورفقاً به (١)
 أما شاعر البيان المصفي، المرحوم «أحمد الصافي النجفي»، فيتساءل لماذا
 انقطعت الأخبار؟ ..

قد انقطع البريد فلا جديد ولا كتب ولا نبأ مفيد
 فهل مات الهوى أو مات حبي أو القرطاس أو مات البريد (٢)

ونلتقي بشاعر العواطف المعاصر عمر بن أبي ربيعة زمانه (نزار قباني) في قصيدته
 التي عنوانها (بريدها الذي لا يأتي):

تلك الخطابات الكسولة بيننا خير لها ... خير لها أن تقطعا
 إن كانت الكلمات عندك سخرة لا تكتبي .. فالحب ليس تبرعا
 إني لأقرأ ما كتبت فلا أرى إلا البرودة .. والصقيع المفزعا
 عفوية كوني .. وإلا فاسكتي فلقد مللت حديثك التميعا

حجرية الإحساس .. لن تتغيري إني أحاطب ميتا لن يسمعا
 ما أسخف الأعذار تبتدعينها لو كان يمكنني بها أن أقنعا
 سنة مضت وأنا وراء ستائيري استنظر الصيف الذي لن يرجعا
 كل الذي عندي رسائل (أربع) بقيت - كما جاءت - رسائل أربعا
 هذا بريد أم فتات عواطف إني خُدعت ... ولن أعود فأخذنا

(١) قافلة الزيت عدد ذي الحجة ١٣٩٧ هـ.

(٢) ديوان هاجس: أحمد الصافي النجفي.

يا أكسل امرأة تخط رسالة
أنا من هواك... ومن بريدك متعب
لا تتعبي يدك الرقيقة إنني
إنني أريحك من عناء رسائل
الحرف في قلبي نزييف دائم

يا أيها الوهم الذي ما أشبعا
وأريد أن أنسى عذابكما معا
أخشى على البسلور أن تتوجعا
كانت نفاقاً كلها... وتصتعا
والحرف عندك ما تعدى الإصبع (١)

ولا عجب أن يكون الشاعر نزار معجباً بقراءة بريد القراء، فيطلع عليها باستمرار.

وإذا ذكر البريد فلا بد أن يبرز من بين الصفوف والأسطر والحروف اسم هو مدار
الأهمية في الإيصال ورسول الأحبة وحامل أسرارهم ذلكم هوشخص (موزع البريد)
الساعي بين ذوي الهوى بالأنباء، والمتنقل بين الدور والأكوخ والقصور حاملاً رسائل
الحب الملتهية وقراطيس الشوق المعطرة وسجلات الغرام المطوية وبطنها مالا يعد ولا
يحصى من عبارات تقطر هوى وعشقا وتذوب وجداً وهياماً.

يقول شفيق معلوف في قصيدته (ساعي البريد): (٢)

ساعي البريد، وما ينفك منطلقاً
يسعى بأكداس أوراق مغلّفة
خلف النوافذ أجفان مشوقة
بدا فهزّ عقود الغيد مقدّمه
كم قبلة من فم العشاق يحملها
يا ساعياً بابتسامات توزّعها
كم وجه أمّ عجوز إن برزت له

وكلُّ باب عليه غيرُ موصود
تفوحُ منهن أطيابُ المواعيدِ
إليه تحفّق من وجد وتسهيّدِ
هزّ التّسيم لحبات العناقيدِ
على يديه ويهديها إلى الغيدِ
على الشّفاء بلا منّ وترديدِ
لم تبق من أثر فيه لتجعيدِ

(١) ديوان الأعمال الكاملة .

(٢) ديوان المعلوف .

تلقى إليها كتاباً إن يصب يدها شدته باليدين للتحر والجيد
كأن كل غلاف منك ملتحف لابن إلى صدر تلك الأم مردود
وكم وكم رقعة كالحظ مشرقة وهبتها كل كابي الحظ منكود

وإذا ذكر البريد والساعي والكاتب والمكتوب له ، فلماذا يهمل (طابع البريد) ؟

ذلك الطابع الذي طالما نزع الهواة ، واحتفظوا به داخل الألبومات والمظروفات وتفننوا في ترتيبه ، وتغالوا في قيمته ، أما العشاق والمحبون فلهم طرق أخرى في حفظ الطوابع والاحتفاظ بها فمن المعروف أن المرسل هو الذي يلصق الطابع بنفسه ، وقد بلغ الوله والهيجان بأحد العشاق المدنفين أنه كان يبيع كل طابع بريد يصله من الحبيب ظناً منه أن حبيبه قد بل الطابع بريقه ومرره على شفثيه ولحسه بلسانه ، ولكن محبوبته خشيت عليه الموت فأعلمته أن خادمها هو الذي يلصق الطوابع فقذف ما بلغ من أوراق وسلم ونجا .

وهكذا يتفانى كل منهما في حب الآخر فهو يريد أن يخلط كل شيء منها بدمه وروحه وهي تحشى عليه الموت والقوت فتشعره بالأمر وتنقذه من الهلاك المين . وهذا أمير الشعراء (أحمد شوقي بك) يحیی (طابع البريد) بمناسبة العيد الفضي لطابع البوستة في جنيف بسويسرا بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٠٠ ، فينشد (سلام على لسان البريد) (١)

أنا من خمسة وعشرين عاما لم أرخ في رضاكم الأقداما
أركب البحر تارة وأجوب البر طورا وأقطع الأياما
ويوافي النفوس متي رسوك لم يكن خائناً ولا نماما
يخيل الغش والتصيحة والبغضا ع والجب والرضى والملاما
ويعي ما تسره من كلام ويؤدي كما وعاه الكلاما
ولقد أضحك العبوس بيوم فيه أبكي المنعم البساما

(١) ديوان الشوقيات ج ٢ / ١٠٦ .

وأهْئِي على التَّوَى وأُعْزِي
وجزائي على خدمتي وَوَفَائِي
رُبَّ عَبِيدٍ قَدْ اشتراني بِمَالٍ
عرف القومُ في (جنيفا) مَحَلِّي
جامِلُونِي إذ تَمَّ لي ربع قرن
ويوبيلُ الملوك يلبث يوماً
وأفِيد الحرمانَ والإِنْعَامَا
ثَمَنٌ لَا يُكَلِّفُ الأَقْوَامَا
وَعُلام قد ساقَ مَنِّي عُلامَا
وَجَزُونِي عن خدمتي إِكْرَامَا
مثلما جاملوا الملوك العِظَامَا
ويوبيل يدوم في الناس عامَا

ولا يزال الحديث عن ذلكم الساعي موصولاً، ومتصلاً بالناس تستبشر به وتنتظره في الشرفات وتخرج للقائه في الطرقات وتبش له وتأتنس به فهو صاحب شأن كبير في حياتنا نفوت مواعيدنا مع الناس ونضبط موعده نضطرب إذا أقبل وتدق قلوبنا ونتمنى أنه لا يحمل إلا رسائلنا فقط نضيق بمروره على أبواب الآخرين. ونضجر ونتعجل وصوله.

وهذا شاعر المهجر الجهير «زكي قنصل» يصف في قصيدته (ساعي البريد) و يصور انتظار أم لرسالة من وحيدها البعيد فيقول على لسانه:

حييته ومضيت في أمري
إن جئت سابقَ ظِلِّه قَدَمِي
حمل العناء على مناكبه
عرق الجهاد على ملاحمه
يا ضارباً في الأرض يزرعها
بالروح جمعتك التي هزأت
فاضت على ليل الحياة سناً
كم دمة لولاك ما انقطعت
ولكم جبرت فؤاد والدة
تبكي فلا يرثي للوعتها
تتصارع الأفكار في سري
وإذا غدوت غدا على أثري
وهمت بلواه على صدري
ودموعه الحمرء في نحري
بشراً قضيت العمر في بشر
آياتها بعجائب التَّحَرِ
وتأوجت بالتَّد والعطرِ
وبشاشة لولاك لم تسر
جارت عليها نقمة الدهرِ
قلبُ كأنَّ الناس من صخرِ

غرقَت بغصتها ابتسامتها
لم يبق من آمالها قبس
ما زال ريب الدهر يقذفها
حتى وقفت ببابها فرأت
هرعت إليك يقودها أمل
يتعثر الترحيب في فمها
سلمت يدك لقد رددت لها
هذا وحيد القلب ينبئها
فاعذر إذا اضطربت جوارحها
عقد السرور لسانها فهمت

وخبا بریق التّور في الشّعر
ذهب القنوط بنعمة القبر
من مهمّة قفر إلى قفر
خلف ابتسامك ليلة القدر
كالفجر بل أسنى من الفجر
ويضيع بين المدّ والجزر
أنس الحياة وأنت لا تدزي
بإيابه في غرة الشّهر
وتخاذلت عن واجب الأجر
من مقلتيها آية الشكر

ساعي البريد متى أعود متى
خلفت في مغناي والدة
تنساب خلفك كلما سمعت
فارفق بها واحل لها نبأ
نذراً عليّ ولست أنكثه
سأقيم إن حققت لي أمني
وأصّب رسمك في قواعده
تجشوا القلوب لديه خاشعة
ساعي البريد إلى اللقاء غدا

ينفك من قيد النوى أشري
تحيا على أذكى من الجمر
باباً يدق وعابراً يجري
يحي بقايا الرّوح في الصدر
سأت عواقب ناكث التّذر
نصبا من الرّيحان والزهر
ذكرى مقدسة على الدهر
وتطوف فيه عرائس الشّعر
حزمت أمتعتي على ظهري (١)

وهل يستطيع الباحث ، أو السامع المهتم أن يقرأ هذه القصيدة الرائعة دون أن ترسم في ذهنه الصور الكثيرة للمغتربين في المهاجر الأمريكية ، وأن يتصور مطاردهم

(١) مجلة الأديب البيروتية العدد ١٢ السنة الثالثة .

للقمة العيش، ومطاردة ساعي البريد لهم بجعبته التي هزأت آياتها بعجائب السحر
— على حد قوله — ومطاردتهم له باحثين، سائلين عن الوصل، يجدونه في الرسائل .
واعجباً لقوله :

كم دمة لولاك ما انقطعت وبشاشة لولاك لم تسر
و يصور بكلماته المُموسقة حال الأم هناك على الطرف الآخر من العالم، وراء
السهوب والبحار، ويجعل ساعي البريد جابر أفئدة الأمهات، و يصور وقوف ساعي
البريد بباب العجوز، انظر إلى الأمل كيف يزرعه الساعي في محياها، وانظر إلى الدماء
تصعد في وجنتيها، فكان الأمل أعاد لها الحياة :

ولكم جبرت فؤاد والدة تبكي فلا يرثي للوعتها
جارت عليها نقمة الدَّهر قلب كأن الناس من صخر
لم يبق من آمالها قبس ذهب القنوط بنعمة الصبر
وفجأة يأتي الفرج :

حتى وقفت ببابها فرأت هرعت إليك يقودها أمل
خلف ابتسامك ليلة القدر أنس الحياة وأنت لا تدري
سلمت يداك لقد رددت لها

و يلتفت إلى ملحمة المغترين يتمثلها فرداً، يتساءل عن عودته، عن رجوعه إلى
والدته، وأحبابه بعد طول غياب :

ساعي البريد متى أعود متى خلفت في مغناي والدة
ينفك من قيد الثوى أسري تنساب خلفك كلما سمعت
تحيا على أذكى من الجمر باباً يدق، وعابراً يجري

ونعود إلى الشاعر نزار قباني فيحكي لنا انتظاره لبريد الحبيب بعد طول انتظار
وسؤال لساعي البريد العجوز:

أغلى العطور أريدها ، أزهى الثياب
فإذا أطل بريدتها بعد اغتراب
وطويت في صدري الخطاب
عمرت في ظني العباب
وأمرت أن يسقى المساء
معي الشراب
ووهبت لليل النجوم
بلا حساب .. بلا حساب
أنا عند شبّاكي الذي يمتص أوردة الغياب
وشجيرة النارج يابسة ، مضيقّة الشباب
وموزع الأشواق يترك فرحة في كل باب
خطواته في أرض شارعنا
حديث مستطاب
وحقيقة الآمال
تعقب بالتحارير الرطاب
هذا غلافي القرمزي
يكاد يلتهب التهاب
أكاد التهم النقاب الفستقي ..
ولا نقاب
أنا قبل أن كان الجواب
أعيش في وهم الجواب
طيبان لي : طيب الحروف
وطيب كاتبة الكتاب ..
أطفو على الحرف الذي صلى على يدها وتاب
خط من الضوء النحيت فكل فاصلة شهاب

هذا غلافي - لا أشك - يرف مجروح العتاب
عنوانه .. عنوان منزلنا .. المغمس بالسحاب
عنواننا عند النجوم الخافيات على الهضاب

يا أنت يا ساعي البريد ببابنا :
هل من خطاب ؟
ويقهقه الرجل العجوز ويختفي بين الشعاب
ماذا يقول ؟ يقول :
ليس لسيدي إلا التراب
إلا حروف من ضباب
أين الحقيقة ؟ .. أين عنواني ؟ ..
سراب ... في ... سراب ...
والحق أن آماله هي التي صارت سراياً في سراب ..

والشاعر إبراهيم ناجي « رومانسي » من رأسه حتى قدميه ، وهو كما يقول عامة
المغنين : « جلاب الهوى » ، أو كما يقول عامة الناس « دمه قريب وحبّه عجيب » .
وهو في ديوانه « الطائر الجريح » إنسان كسير الخاطر مسكين ... ما يكاد يظفر
بالكتاب حتى يقبله ألف مرة .. لا يدع منه حرفاً .. وهند صاحبة الكتاب !! .. وما
بين المحبين ليس يخفى .. وحبُّ الشاعر كشغفه لا بد أن يُذاع ويتنقل كالريد : (١)

قبلت خطك ألفاً ولم أدع منه حرفاً
قد كنتِ توأم قلبي وكنتِ في الغيب ألفاً

(١) ديوان الطائر الجريح ، إبراهيم ناجي .

يا هند ما الحسن إنني أجلُّ حسنك وصفا
رأيتَه بخيال على جمالك رفا
وكيف أخفي اشتياقي ما بيننا ليس يخفى

وللشاعر العباس بن الأحنف .. وهو من عُرف بالعدرية في أظهر ملامحها كتاب مرسل إلى «فوز» حملَه لواعج الشوق، وتباريح الهوى، وقال فيه من مفردات الحب ما لم يتيسر لكثير من الشعراء العشاق .. وفي النص عبرات وشهقات حرى، وقد أوصى أهل المروءة من زوار بيت الله الحرام أن يلبقوا أهل يثرب — وفيهم فوز — عن حاله بالعراق وقد تعلق بجمال الموت، لا يرجى له من شفاء، ويسألهم أن يأتوا له بقارورة ماء من عندها، فإن أدركوه رشوا على وجهه ماءها، وإن سبقتهم منيته رشوا منه على قبره .. فهو شهيد غرام لا شهيد قتال ! ..

وقصيدته هذه من عيون الشعر العاطفي الصادق النابع عن تجربة ذاتية ومعاناة حقيقية .. هذا مع ما فيها من روائع الصياغة وسلاسة الكلمات وحرارة الموسيقى .. ومن جميل معانيه، تعاطفه مع المحبين والرجاء إلى الله أن يقرب دار كل حبيب، ودعوته إلى الباكين أن يتعاونوا في مجاهدة الهوى فهم يوشكون أن يبقوا بدون قلوب، وتحميل الرياح سلامه وكلامه عن النكبات وتسميتها ببنات الدهر ..

وقد تناهى الشعر في عصره عند لطفه ورقة شعوره، وسهولة جرسه وعدرية إيقاعه، يقول في معلقة الحب والعواطف :

أزَيْن نساء العالمين أجيبني دعاء مَشُوقٍ بالعراق غريب
كتبت كتابي ما أقيم حروفه لِشَدَّةِ إِعْوَالي وطولِ نحبي
أخطُّ وأحوما كتبتُ بعبرةٍ تَسُحُّ على القِرطاسِ سَحَّ غُروب
أيا «فوز» لو أبصرتني ما عرفتني لطولِ نحولي بعدكم وشحوبي



وَأَنْتِ مِنَ الدُّنْيَا نَصِيبِي فَإِنْ أُمْتُ
سَأَحْفَظُ مَا قَدْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَكُنْتُمْ تَزِينُونَ «العراق» فَشَانُهُ
وَكُنْتُمْ وَكُنَّا فِي جِوَارٍ بِغَبْطَةٍ
فَإِنْ يَكُ حَالُ النَّاسِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
فَلَا ضَحْكَ الْوَاشُونَ يَا «فُوزُ» بَعْدَكُمْ
وَإِنِّي لِأَسْتَهْدِي الرِّيحَ سَلَامَكُمْ
وَأَسْأَلُهَا حَمَلَ السَّلَامِ إِلَيْكُمْ

أَرَى الْبَيْنَ يَشْكُوهُ الْأَجْبَةُ كُلُّهُمْ
وَأَبْيَضُ سَبَاقِ طَوِيلِ نِجَادِهِ
أُنَاقُ بَضْبُ بَعِيهِ إِلَى فَرْعِ هَاشِمٍ
لِحَانِي فَلَمَّا شَامَ بَرْقِي وَأَمْطَرْتُ
فَقُلْتُ أَعْبَدَ اللَّهُ أَسْعَدْتُ ذَاهُوِي
سَأَسْقِيكَ نَذْمَانِي بِكَأْسِ مِزَاجِهَا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْحَبَّ أَخْلَقَ جِدَّتِي

فِيَا رَبَّ قَرَّبْ دَارَ كُلِّ حَبِيبٍ
أَشْمَ خَصِيبِ الرَّاحَتَيْنِ وَهَوْبِ
نَجِيبِ نَمَاهِ مَا جَدُّ نَجِيبِ
جَفُونِي بِكِي لِي مُوجَعُ الْكَرُوبِي
يَحَاوُلُ قَلْبًا مُبْتَلَى بِنُكُوبِ
أَفَانِيْنُ دَمْعُ مُسْبَلٍ وَسَرُوبِ
وَشَيْبَ رَأْسِي قَبْلَ حَيْنِ مَشِيبِي؟

أَلَا أَيُّهَا الْبَاكُونَ مِنْ أَلَمِ الْهَوَى
تَعَالَوْا نُدَافِعْ جُفْهَدَنَا عَنْ قُلُوبِنَا
كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ «فُوزُ» لِأَهْلِكَ جَارَةٌ
أَقُولُ وَدَارِي «بِالْعِرَاقِ» وَدَارُهَا
وَكُلُّ قَرِيبِ الدَّارِ لَا بَدَأَ مَرَّةً
سَقَى مَنْزِلًا بَيْنَ «الْعَقِيقِ» وَ«وَأَقِمِ»
أَجَشُّ هَزِيمُ الرِّعْدِ دَانَ رَبَّائِهِ

أَظُنُّكُمْ أَذْرَكْتُمْ «بِذَنُوبِ»
فِيَوْشَكَ أَنْ نَبْقَى بِغَيْرِ قُلُوبِ
بِأَكْنَافِ «شَطِّ» أَوْ بِعَذَبِ «سَيْبِ»
جِجَازِيَّةً فِي حَرَّةٍ وَهُسُوبِ
سَيُصْبِحُ يَوْمًا وَهُوَ غَيْرُ قَرِيبِ
إِلَى كُلِّ أَطَمِ «بِالْحِجَازِ» وَلُوبِ
يَجُودُ بِسُقْيَا شَمَالٍ وَجَنُوبِ

أَرْوَارَ «بَيْتِ اللَّهِ» مُرَّوَا «بَيْثَرَب»
 إِذَا مَا أَتَيْتُمْ «يِثْرَبَا» فَتَبَرَّوَا
 وَقُولُوا لَهُمْ يَا أَهْلَ «يِثْرَبَ» أَسْعِدُوا
 فَإِنَّا تَرَكْنَا «بِالْعِرَاقَ» أَخَا هَوَى
 بِهِ سَقَمٌ أَغْيَا الْمُدَاوِينَ عِلْمُهُ
 إِذَا مَا عَصَرْنَا الْمَاءَ فِي فِيهِ مَجَّةُ
 تَأْتُوا فَبِكُونِي صُرَاحاً بِنَسْبَتِي
 فَإِنَّكُمْ إِنْ تَفْعَلُوا ذَاكَ تَأْتِيَكُمْ
 عَزِيزٌ عَلَيْهَا مَا وَعَدَ غَيْرُهَا
 فَقُولُوا لَهَا قُولِي «لِفَوْزٍ» تَعْظَفِي
 خُذُوا لِي مِنْهَا جَرَّةً فِي زَجَاجَةٍ
 وَسِيرُوا فَإِنْ أَدْرَكْتُمْ بِي حُشَاشَةٌ
 فَرُشُّوا عَلَى وَجْهِي أُفُقٌ مِنْ بِلَيتِي
 فَإِنْ قَالَ أَهْلِي مَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ
 فَقُولُوا لَهُمْ: جِئْنَاهُ مِنْ مَاءِ «زَرْزَمَ»
 وَإِنْ أَنْتُمْ جِئْتُمْ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَكُمْ
 وَصِرْتُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى قَعْرِ حَفْرَةٍ
 فَرُشُّوا عَلَى قَبْرِي مِنَ الْمَاءِ وَانْذَبُوا

لِحَاجَةٍ مَتَبَوِّلِ الْفَوَادِ كَثِيبِ
 بِلَطْمِ خُدُودِ أَوْ بِشَقِّ جُيُوبِ
 عَلَى جَلْبِ لِلْحَادِثَاتِ حَلِيبِ
 تَنْشَبُ رَهْنَاءً فِي حَبَالِ شُعُوبِ
 سَوَى ظَنَّهُمْ مِنْ مُخْطِئٍ وَمُصِيبِ
 وَإِنْ نَحْنُ نَادَيْنَا فَبَغِيرُ مُجِيبِ
 لِيَعْلَمَ مَا تَعْنُونَ كُلُّ غَرِيبِ
 أَمِينَةُ خَوْدِ كَالْمَهَاةِ لَعُوبِ
 نَأَتْ وَبَنَاتُ الدَّهْرِ ذَاتُ خَطُوبِ
 عَلَى جَسَدٍ لَا رُوحَ فِيهِ سَلِيبِ
 أَلَا إِنَّهَا لَوِ تَعْلَمُونَ طَبِيبِي
 لَهَا فِي نَوَاحِي الصَّدْرِ وَجَسْنُ دَبِيبِ
 يُثِيبُكُمْ ذُو الْعَرْشِ خَيْرُ مُثِيبِ
 وَقَدْ يُحَسِّنُ التَّعْلِيلَ كُلُّ أَدِيبِ
 — لِنَشْفِيهِ مِنْ دَاءِ بِهِ — بِذَنْوِبِ
 وَبَيْنِي بِيَوْمِ اللَّمَنُونِ عَصِيبِ
 حَلِيفٌ صَفِيحٌ مُطَبَّقٌ وَكَثِيبِ
 قَتِيلٌ كَعَابٌ لَا قَتِيلَ حُرُوبِ

ومع الأحنف مرة أخرى ، ومع رسالة أخرى يكتبها المحب إلى حبيبه ، وعينه
 دامعة ، وجسمه أثنى عليه الشوق فجعله نحيلاً هزيلاً ، وقلبه ثابت على الغرام لا ينتهي
 عنه ، وسمعه أصيب بالضرر أيضاً وكلُّها من باب الشكوى والاستعطاف ليرق قلب
 الحبيب ، ويرد عليه فكتابه كما يقول يُكي السميع وتلين له القلوب ، فيه العجائب ،
 وفيه فقدان الصبر ، بعد أن صبر الصبر الجميل ، وما حب حبه جميل ولا عروة ولا
 الرقش الهاوي .

وبعد هذا الاستعراض الهادف ، وأمام هذا الاستعطاف ليس لها إلا أن ترد عليه
فيطلب منها يديها للمصالحة ، و يؤكد عليها أن ترد الجواب ، يقول (١) :

والعينُ منه ما تحِفُّ من البُكا	كَتَبَ المحبُّ إلى الحبيب رسالةً
والقلبُ منه ما يطاوع مَن نَهي	والجسمُ منه قد أَضربَه البلى
والسمعُ منه ليس يَسمع مَن دعا	قد صار مثلاً الخيطُ من ذِكرائِكمُ
يبكي السميعُ له ويبكي مَن قرا	هذا كتابٌ نحوكم أرسلتهُ
أطفاه حُبُّك يا حبيبهُ فانطفا	فيه العجائبُ من محبِّ عاشقٍ
وهو يتكم - يا حَبَّ نفسي - لِلشقا	وصبرتُ حتى عَيل صبري كلُّهُ
والحُبُّ من غيري ، فديتُك ، قد أبى	وكتمتُ حَبَّكَ فاعلمي واستيقني
أو ما لهذا ، يا فديتُك من جَزا؟	أفما لِهَذَا حُرْمَةُ محفَوظةُ
حقاً ، ولا المقتولُ «عُرْوَةُ» إذ صبا	ما إنْ صَبَا مثلي «جميلُ» فاعلمي
«أسماء» لِلحَينِ المُحْتَمِّ والقضا	لا ، لا ولا مثلي «المُرَقَّش» إذ هوي
لِتُسَبَّ مَن بالصَّرمِ يا نفسي بدا	ها تَبي يديكَ فصالحيني مرَّة
أنَّ الرسالةَ منكمُ عندي شفا	رُدي جواب رسالتي واستيقني
عَدَدَ النجومِ وكُلَّ طيرٍ في السَّما	مِني السَّلامُ عليكمُ يا مُنيتي

* * *

ونعود إلى صندوق آخر من صناديق بريد المحبين ، هذا الصندوق للشاعر محمد
الجيار و بريده لا يحمله كتاب في غلاف ، ولا يسير به قطار ، أو يطير به جناح وإنما هو
كتاب خفَّاق يملأ في آفاق الدنيا ، ويحط على رأس كل إنسان يهيب به أن يتأمل
قدره ، وأن ينظر مصيره .. وأن يفقه حقيقة صنيعه ، ويعمل من أجل السلام .. سلام
البشر ، الذين لم ينعموا بالسلام ، إنه بلا شك بريد الإنسانية ، يقول (٢) :

(١) انظر ديوان العباس بن الأحنف .

(٢) وعلى الأرض السلام (رسالة إلى الإنسان) للشاعر محمد الجيار.

رسـالتي إليـك حيث أنت يا إنسان
يا صانعاً حضارة لا تعرف الأمان
من ألف حقبة لم يسقط المطر
جئنا.. لكي نموت يا تعاسة البشر

والكتابُ في نصوص القُدّامى — وفي لغة المحدثين كذلك — خطاب البريد،
والبريد في معاجم العرب يعني الوصال المرتب، كما يعني «الرسول». وشاعر
«البريد» في هذا «الكتاب» من الشام..

خليل مردم .. أجل به من شاعر ذي مكانة بين الكبار في أدب أمّتهم وأصالة
شآملهم، فيه عير الرّبي، وشموخ الرّواسي، وحفل الغوطة. وفيه توائم من الرّوّج
والريحان، والأنغام، وكل ما هو حلوجني..

وكان الشاعر فيمن كتب وكتبَ له .. ومن تواصل حبل الهوى بينه وبين مَنْ
عشيق مِنْ ذوات الروح، وربّات الوجد..

وقد أتاه «كتابها» فدعاه .. ويا لله من ذاك «الكتاب»، فقد هام بها، ولج في
حبها، ونازعته النفس في لقاها .. وسهدت عيناه، وما ظفر من مرآها ... وقد همَّ
ولم يفعل .. حياءَ منها .. ومنه .. ولاذ بالهوى العذري .. على نهج الشعراء .. من بني
عبر أو بني عُذرة .. لكم الله أيها الشعراء!!
يقول خليل مردم بك: (١)

كتابك حين ألقى لي دعا قلبي إلى حبك

* * *

عيون من كلامك قد أرتني كلّ ما يُصبي
ومثّلنك للقلب فهم ولج بالحب

(١) ديوان خليل مردم بك .. منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق .. قصيدة «كتابك» ..

فيا لله ما لاقى فؤاد الصب من كتبك

فكم هي جيت لي نفساً تنازعني للقياك
وكم أسهرت لي عيناً وما اكتحلت بـرآك
فما هذا الذي ألقى أمن كسبي أم كسبك؟

وقد وقفت عليك العيينُ في جمع بناديكِ
لكدت بوحي نفسي قبـ ل معرفة أناديكِ
هممت بهذا ولم أفعل حياء منك في سربك

وفي قعيدة «الساعة الرابعة» تمل الشاعرة روحية القلبيني إلى البريد، فيس
يكفيها هاتفها وإنما تسخر لعواطفها كل وسائل النقل من هاتف و بريد.. لا ينقصها
غير البرق.. ومن يدري فلعل برقاً خاطفا بينها وبين ذياك الذي تقف عليه القلب
والسمع والبصر.

لعل رسالته في الطريق!!.. وتلك الرسالة شط الغريق!

ما أشد الفراق وما أجمل اللقاء!

أعيش على أمل في اللقاء... فهل لا يعود الحبيب الصديق.. نعم..
«فالشواعر» قد لا يفصلن بين الحبيب والصديق.. فالتناس عندهم أحباء وكل البشر
أصدقاء..

فكيف إذا غاب عني أطيق وكيف يقرفؤادي المشوق^(١)
فيمضي بعيداً بعيداً هناك وأبقى أنا في لهيب الحريق
أعانق سهد الليالي وأحكي لسمع الوساد هواي العميق

(١) ديوان غير قلب للشاعرة روحية القلبيني.

أقول لكل صباح جديد لعل رسالته في الطريق
فاني غرقى ببحر اشتياقي وتلك الرسالة شط الغريق
فيمضي وأبقى مع الذكريات فحبي عميق وعهدي وثيق
أعيش على أمل في اللقاء فهل لا يعود الحبيب الصديق

أما الشاعر السعودي (مطلق الذيابي) فقد عبر عما يحمله قلبه من الحب
والأشواق والتطرق إلى رسالة المحبوبة التي تلقاها حيث قال في قصيدة طويلة أسماها
(سطران) يصف فيها — رغم أنها سطران — ولكن ما تحمله من المعاني السامية
والخواطر الفياضة هما كل الدنيا :

سطران كتابك .. لا أكثر
سطران هما كل الدنيا
فقرأتهما ... وقرأتهما
سطران العفة روحهما
سطران كحاجبك الأسنى
أما همساتك في أذني
ولواعج أشواقي تذكي
الحب وهبتك أخلصه
فهواك البحر تقاذفني
هل تقرأ شعري .. يا أملي
قد صغت بسحرك نابضه
في الشفق الأحمر في خديك
في ذوب الورد .. ينفره
لا مطمع في خلدي يزري
سميتك أسمر هل تدري ؟
فشغاف القلب تغلفه
حلا شكرانك .. يا أسمر
بهما يا قلبي .. أتدثر
مئة .. ألفا .. لا بل أكثر
لكنهما ... نار تصهر
بمحا الفجر .. إذا أسفر
نغمات تأسرنى تسحر
في الصدر ضراما .. لا يفتر
وحضنت هواك هوى أكبر
والقلب بلجته أبحر
إن كنت قرأت .. ألا تذكر
من شعري في الثوب الأصفر
وضوء البدر ... إذا أزهـر
خجل في الوجنة يتفجر
بل روحك لي .. أمل أخضر
برنين صدى اسمك لم أجهر
سيعيش العمر ... ولا يظهر

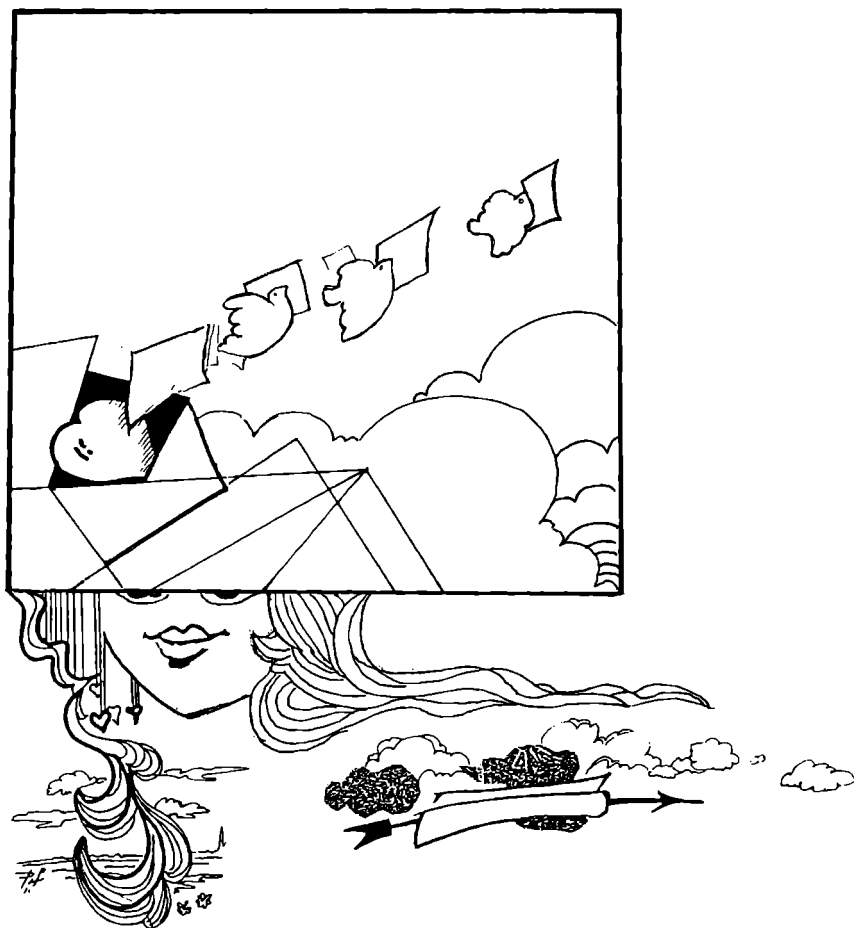
ستظل الملهم في الحالين إذا أقبلت .. وإن تنفر

وما زلنا نواصل استعراض كلمات شاعرنا الوهان .. (مطلق الذيابي) الذي
نشعر من كلماته في هذه القصيدة (انتظار) بحلاوة الكلمات وأسمى التعبيرات واصفاً
هيب أشجانه .. منتظراً على أحر من الجمر رسالة من حبيبة قلبه فيقول :

أنا في انتظار خطابك الأول	فلقد بعثت خطابي الثاني
ضمنته ما جد من أرقى	وسكبت فيه هيب أشجاني
ماذا فعلت ؟ فأنتِ آسرتي	والحب سر هواك أسقاني
إيمان .. يافجر الدنا طلعت	فيه الشמוש تنير وجداني
الشعر أورك يانعا بفمي	منه بحبك صغت ألحاني
لا شعر قبل هواك أحسنه	واليوم يزهر فيه بستانى
الحب أنت وأنت نبض دمي	سهم التناهي عنك أقصاني
أنت الغنى أثريت عاطفتي	ولأنت فيض الحب أغناني
أهديتني الدنيا وبهجتها	حين احتواني قلبك الحاني
أنت السعادة رف بارقها	من مقلتيك .. وسحرك الهاني
ما كنت أحسب قبل صدقتنا	أن الهناءة منك .. تلقاني

و يهنئ شاعرنا (مطلق الذيابي) صدق قلبه عبر أسطر خطاب محبوبته في قصيدة
(خطابك) الذي قرأه بلهفة العاشق الوهان .. ليس بعينه ولكن بعيون قلبه الخفاق
بالأمل والأمانى ، لما يحمله هذا الخطاب من أسمى المعاني فيذكر :

خطابك جاءني .. فلى الثهاني	تضوع منه نشر الزعفران
قرأت سطره .. بعيون قلبي	وأشرق خافقي بسنا الأمانى
خطابك يا حبيب الروح كنز	أطالع فيه حبات الجماني
أطالع فيه در القول صدقا	كما صدق الهوى لك من جناني



حبيبي... يا أعز الناس عندي متى يهنا محبك... بالتداني؟

وفي ليلة ليلاء تعصف به الأشواق، ويرجع إلى الماضي، ويبحث عن الذكريات ويتناول رسالتها ويقرأ أيام الحب في ظل الخميلة ويتذكر الحكايات، واللقيا، فيراها قصة حب خالدة:

في ليلة عصفت بى الأشواق والدنيا سكون
ورجعت للماضي الحبيب بكل ألوان الحنين
أتلو رسالتك الحبيبة حين تعصف بى الشجون
استرجع الحب الفتى وفي الهوى بعض الجنون
وأقول هل مازال يهواني وتعصف بى الظنون
والنبض في الكلمات يصرخ أن حبك لا يهون
ترتاح نفسي، تستقر، أقول مثلك لا يخون

وقرأت في طي الرسالة كل أيامي الجميله
أيام كنا نلتقي بالحب في ظل الخميلة
نحكي ونحكي لا نمل كأنها قصص الطفولة
ونخاف لو مرت أماسينا وليس هناك حيله
ونود لو نسى الزمان وأضحت اللقيا طويله

هي قصتي في الحب خالدة على مر الدهور
البعض طي رسائل والبعض في عمق الضمير
من عاش مثلي في الهوى يدري البداية والمصير^(١)

و يعبر الذبابي عن تعطشه لعبارات الهوى وتشوقه في «الرسالة» تأتيه رسالتها

(١) ديوان حنين إلى ...

فيقلبها، و يقرؤها، و يعود إلى الألفاظ بهوها ينساب منها نبع الشوق فلا يمل منها،
يقول^(١):

الرسالة ...

عندما جاءت إلينا منك ... قبلنا الرسالة
وقرأناها ...

وعدنا لعبارات الهوى ... دون ملالة
وحفظنا كل حرف مشرق -

ينساب من نبع ... الأصالة
أنت يا من تمنح الروح بتحنانك
وردى المقالة ...

ليس في القلب ...

سوى حب ... محضناك صفا
فاشرب زلاله ...

ومن طريف البريد ما يكتب على التفاح المهدى، وما يكتب على ورق الورد،
وما يكتب على الصخر من قلب رهيف أضناه الهوى، وأضعفه الجوى وقبل أن أذهب
بكم إلى الهاتف وأشجانه، أرى أن أقدم لكم حكاية طريفة في هذا الجانب.

فمن طريف شعر العشاق المكتوب على الحجر بريدأ، ما حكاها الأصمعي قال :
بينما أنا أسير بالبادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت المفرد:

ألا معشر العشاق بالله خبروا إذا حلَّ عشق بالفتى كيف يصنع
فكثبت تحته :

يداري هواه ثم يكتنم سره ويخشع في كل الأمور ويخضع

(١) سمعت نبأ وفاة الشاعر مطلق الذيابي وأنا أضع اللسان الأخيرة في هذا الكتاب، ومن حقه علينا أن
نعرف الأخوة القراء بهذا الشاعر المرحوم : ولد سنة ١٣٤٦ بالأردن، وعمل بالإذاعة السعودية ونال شهرة
واسعة وحظا من الدنيا ضيق، وقد توفي بجلطة سنة ١٤٠٣ هـ، ورثاه مؤلف هذا الكتاب بمقال مؤثر دامع.
كان عفيف النفس لطيف المعشر أشم المجلس رقيق الشامل.

ثم عدت في اليوم الثاني فوجدت مكتوباً تحته :

وكيف يداري والهوى قاتل الفتى وفي كل يوم روحه تنقطع
فكتبت تحته :

إذا لم يجد صبرا لكتمان سرّه فليس له شيء سوى الموت أنفع
وعدت فوجدت هذا البيت :

سمعنا أطلعنا ثم متنا فبلغوا رسالتنا من كان بالوصل يمنع
(قال) فوجدت شاباً مكفياً تحت ذلك الحجر ميتاً^(١).

ونختتم فصلنا هذا باللقاء مع كاتب العربية الكبير عباس محمود العقاد الذي يصيح بساعي البريد مطالباً بعدم الترتيب في توزيع الرسائل على أصحابها بل يدعوه أن ينطلق لداره رأساً من مكتب البريد لأن الشاعر متلهف لا يطيق الاضطراب ولا يقوى على الانتظار:

ماذلك التنسيق والجمع والتفريق
والقفز والتعويق يا ساعي البريد

و يصل المحبوب الذي كان ينتظره العقاد فلم يعد يحفل بالساعي كما كان يحفل به من قبل لأن من كان ينتظر أن يحضر له أخباره حضر بنفسه فليس بعد بحاجة إلى أن يرقب الطريق و ينتظر الطارق .

عجب الساعي الذي كنت له أبداً في شرفتي منتظرا
إن من تحضر لي أخباره أيها الساعي بخير حضرا
ألق إن شئت خطاباً حافلاً لا أبالي لحظة إن حضرا

(١) أنظر تحفة المجالس، للسيوطي ص ١٢٠ القاهرة، ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ .

الطريق الآن لا أرقبه لأرى وجهك لكن لأرى
ولك الشكر ولى العذر فلا تظهر الآن فها قد ظهرا
لا تذكرني نواه بعدما كنت تروي عنه ذكرا عطرا^(١)

أرأيتم أيها القراء الأعزاء كيف تبلغ أهمية ذلك (الساعي الصغير) إن له عند الكبار مقاما ومكانة فقد ردد الأدباء والشعراء ذكره في مقالاتهم وأشعارهم كما رددته الملايين في الأرض منذ كان عشاق وسعاة وبريد، وإن حناجر الغيد الحسان لتهتف مع المطربة نجاح سلام (بالله عليك يا موزع البريد).

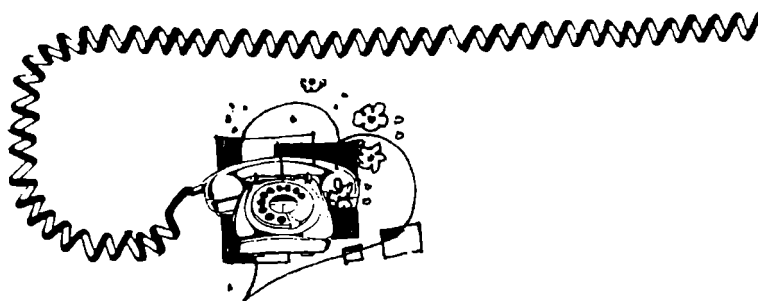
إن أيدي المحبين يتخطف الرسائل من يد ساعي البريد وتنكب عليها لثما وتقبيلا أو تضعها على القلوب وتمسح بها الصدور وتشمها الأنوف، وتقبلها الشفاه والثغور، وأحيانا يخفيها المحبون تحت الوسائد، أو يتلعونها في بطونهم وأجوافهم ليختلط مداد الحبيب بدم الجسم واللحم، تعبيراً عن الامتزاج والاتحاد وعدم الفراق والانفكاك، وهم يفعلون ذلك لحرمان العواذل والحساد من إمساكها وتمزيقها، فتتمزق معها آمال وتتحطم برامج حب ومشاريع غرام، وكثيراً ما سبب البريد سفك دماء أو سفح دموع أو تكسر تهديدات بين الضلوع!..



(١) خمسة دواوين للبقاد.



الهاتف في الشعر العربي



الهاتف في الشعر العربي

عرّف اللغويون والتّحاة (الهاتف) بأنه من يتكلم ولا يُرى (بضم الياء) وهو الصوت، وإذا تذكرنا أن الهاء حرف مهموس نكون قد حددنا مقياس هذا الصوت، وما دمنا بصدد الحديث عن الهاتف والعواطف فما أكثر ما يتراءى للمحب طيف الحبيب، فيكلمه ولا يراه، أو يهذي بذكره وذكره، وجاء عصر الهاتف الآلي فحقّق شيئاً من آمال المحبين، فإذا كانت المكاتبة نصف المشاهدة، أو هي المشاهدة نفسها، فإذا رنّ جرس الهاتف حضنه بين يديه، وألصق جزءاً منه بشفتيه وأذنيه وقال شكواه وأسمعه تأوهات وزفراته وناجاه وأطلعه على أسرارهِ وخصوصياته، وقال له عبر هذا الجهاز الصغير ما يجوز وما لا يجوز، فيسمع ضحكاته تأتي مجلجلة عبر الأسلاك، أو يحس شهيقه يعبر إليه ويطوي المسافات والأميال فكأنه بين يديه. إن الهاتف بحق هو رسول العشاق إن شاقهم لقاء الأحباب، وحالت دون ذلك موانع وأسباب.

وإذا ذكرنا الهاتف والشعراء، برز في المقدمة شاعرنا السعودي طاهر زنجشري يتقدم الصفوف، ويزد القوم ويزيد في القصيد فله مع المحبوب والهاتف وقفات طويلة، فمن قصيدته «صدي ضحكة هاتفية» يقول:

أيا صدي غرد في (هاتف) عطل بالسحر فضول الرقيب

قد سابق الغمزة من جفنها
وحمل الأسلاك ترنيمة.....
يجللو الدراري باسمات الرؤى
ويرسل الأنغام خيرية
يأسوجراحاتي وأطيافها
توحي الأغاريد لقيثارتي
تلتاع لبالبعد أنواره
كل نصيبي منه إيماءة
استشعر الحسرة من رجوعها
فيطرق السمع صدى ضحكة
فأملأ الدنيا جوى صارخا

إلى بساما ففاض النحيب
معزافها النشوان ثغر رطيب
وينثر الدرو يسبي القلوب
وفي الحنايا من صداها دبيب
بين عيونني أنجم لا تغيب
فأنثر الألحان عبر الدروب
فمصدر اللوعة قرب الحبيب
تدمي وتبقي في الحنايا ندوب
فيذرف الآهات قلبي الطروب
تجعلني أصدق كالعندليب
في ظله النجوى بحبي تطيب (١)

ويقول واصفاً صوت الحبيب المغرد يتخطى عبر الأثير فيثير الشوق و يؤجج النار
ويذكرني الشعور:

كيف بالله بالوجيب المثير قد تخطى الأبعاد عبر الأثير؟
صوتها الهامس المغرد في التيار فوق اللهب بالتعبير
تتهاوى له المسرة للمسمع ورجع الصدى بعمق الشعور
وعلى وقعه فؤادي من اللهفة أجرى حنينه في الزفير

وحبل الهاتف الممدود طالما أوحى للشاعر بالرؤى والصور، فيقول :

ورن في مسمعي صوت له نغم
أسرى به ألق من جوف عاذله

متى تماوج دق القلب ملتاعا
هي المسرة مدت حبلها باعا

(١) أغاريد الصحراء .

للموصل لكن بلا رؤيا فان سمحت جادت فجمعت العشاق أسماعا
بها تعانقت الأرواح هائثة وإن صفوا الهوى من رجعها شاعا

ونتابع الزمخشري ونتبع فرحته برنين الهاتف:

أيها الخائق من صمت الهوى لا تذب نفسك شجواً وأنيئا
ها هو الهاتف في مقعده في سكون الليل قد بث العيوننا
ظماً الشوق به في لهفة يرتجبي النجوى وتأبى أن يحينا
فإذا جاءت له لومسة سكب الفرحه في سمعي رنيننا

وتلفون الزمخشري معلق بالجدار فإذا اتصل الحبيب من الطرف الآخر سمعت له
رنينا قويا يوقظ النيام من سباتهم:

وافترقنا
وإلى لقاء .. أرف
الوعد جاذبتي ظنوني
وعلى الصمت في الجدار عذول .. كان
خفاقه قوى الرنين
ساخراً
بالذي يعد الثواني .. في
جنون وليس بالمجنون
وقال
يا من إلى فتاتك تهفو
أنا قدمت وعدّها من حنيني .. (١)

(١) رباعيات صبا نجد.

ونلتقي بالشاعرة الكويتية سعاد عبدالله المبارك الصباح، فهي تخاطب الهاتف الذي طالما أسعدها بقاء وحديث، وتلقت عبره أخباراً وبشائر ولكنه الآن صامت أخرس أبكم لا يتكلم، فهي تهدده بالتحطيم حتى يكون هشيماً تذروه الرياح إن لم يتكلم و يترنم ويصحو من سبات:

<p>وترنم ولا تحطم غروري أنا مثلت فيك فيض شعوري وجوى خاطرى وحر سعيري من سبات الردى وصمت القبور بالرّنين الحبيب صوت أميري ي وهمس الصّبا ونجوى الطيور يا جاداً يحيا بغير ضمير هم وتهديد صمتك الموتور ثم أذكرك كالهشيم النثر ي وعوني ومنقذي ومجيري مشتهاة حروفها من نور بلقاء الحبيب عبر الأثير ضي، وأصحو على نداء البشير ني وأنسى هواجسي وغروري (١)</p>	<p>أيها الأ بكم الأصم تكلم أنا عانقت فيك لهفة روحي أنا رقرقت فيك حرقه قلبي لتدب الحياة فيك لتصحو لتذوب الثلوج عنك لتجلو في حديث أرق من نغم التّـا أيها الأ بكم الأصم تحرّك لا تثرني بلونك الأسود الجـ لا تدعني أهوى عليك بسخطي لا تثرني فطالما كنت سلوا كم تلقيت لي سطور حنان كم ترفقت بي وأسعدت عمري فإذا بي أستغفر الحبيب لما وألبي سماعتي وهى تدعو</p>
--	---

ولشاعر المهجر جورج صيدح من قصيدة عنوانها (على الهاتف):

<p>وشجاني أنني في الدار وحدي أنا لا أسعى إليها بالتماس</p>	<p>لج بي تذكّارها ليلة شهد أترى تشتاقني من بعد صد</p>
--	---

(١) ديوان الشعر الكويتي.

لا أناديها ولوتقطع رأسي

غير أن الهاتف الملقى بقربي رقم الرقم الذي أملاه قلبي
فإذا الصوت الذي أرجو يلبي ويحييني فاستلقى التحية
زفقات من فم الخط شجية

قلت :أوصيك بنسياني بتاتا لا تضيعي الجهد غنجا وشكاتا
قد خنقت الحب في صدري فماتا فاحجبي وجهك عني ما حييت
حاذري أن تطرقي باب مبتي وأطاعتني بعصيان الوصية
سقط الهاتف من كف الصبية أقبلت من فورها تعدوإليا
فهمتني مرة يا للذكية وطوانا الليل بالأستار طيا (١)

يمتاز الشاعر عبد الكريم الكرمي .. بسلاسة أسلوبه .. وعذوبته .. فله وقع جميل
على سامعه .. يهز المشاعر .. ويحرك العواطف .. ويلهب الوجدان ونرى هذا جلياً في
قصيدته (هاتف الشوق) الذي يتمنى فيها أن يكون جار حبيبته يراها ويسمع
صوتها ، تقول له (يا صباح الخير) ! .. فهذه الكلمة أشهى من النيذ المعلق .. يقول :

خفق (الهاتف) الذي نقل الصوت وللخفق كان قلبي أسبق
رق من صوتها ولان .. وقالت إن صوتي لولامس الصخر أورك
ينتشي الحرف عندما تلفظ الشوق وشعري بالعطر والنور يعبق

ليتني كنت جارها .. فأرى الصبح على دارها الحبيبة أشرق
كل يوم تقول لي : (يا صباح الخير) أشهى من ~~السجين المعلق~~
وتضئ المدى أشعة عينيها ولم يبق في المدى السرم معلق
فالقلوب انحنت على النور نشوى كل قلب على شعاع معلق

(١) ديوان صيدح .

أموي الهوى فمن رام أن يخلد في الحب والحياة تدمشق (١)

و يصف الشاعر محمد العيد الخطراوي هاتفه وقد نطق بعد صمت مطبق صار
الهاتف لحناً ساحراً، و يأتيه صوتها من الطرف الآخر (من؟) فيحقق قلبه و يتمنى لو
أنه على هاتف تلفزيوني ليراها وتراه يقول: (٢)

تلفنت فالفضاء أصبح عرسا	زاخرا بالغناء والإنشاد
والجهاز الأصم صار لحونا	ساحرات جميلة التردد
أمسكت برهة وعادت تنادي	مرحبا، من؟ فزاد خفق فؤادي
وتمنيت هاتفاً تلفزيا	كي أراها وأستعيد ودادي

والشاعر المصري الكبير عزيز أباظة يستمتع بالصوت يأتيه من الهاتف فيخف له
و يطرب:

حل الهاتف لي منك صدى	خاضع النبرة مخمور الرنين
خلته صوتاً من الخلد زكا	مثلما يزكو ابتهاج المرسلين
لج في حبك خوذاً طفلة	والتظلى حبك عند الأربعين

والشاعر السعودي الشاب عبدالرحمن العشاوي يصف مشاعره وأحاسيسه
ولهفته وارتجاف حديثه حين يهتف له المحبوب عبر الهاتف فيقول من قصيدة له بعنوان
(رعشة هاتفية):

لن يتم اجتماعنا فاعذريني وعزائي سماعة التلفون

(١) ديوان أبي سلمى، (عبدالكريم الكرمي).

(٢) ديوان (هبات في آذن الليل)، محمد العيد الخطراوي.

رعشة حين ربعتها تعتريني
وألقى من الكلام الرصين
كلماتي لفرحة تحثويني
لحديث مرصع بالحنين
قلب وزادت لواعجي وشجوني
في كلامي ورجفة في يميني

هي خير من الرسائل لولا
أنضد القول قبل أن نتحاكى
فإذا ما سمعت صوتك ضاعت
أنهب القول من حديثك شوقا
وإذا رن خافقي هتف الـ
فاعذريني إذا سمعت ارتباكاً..

وميشال نعمة يدعوها أن تتصل به كل ليلة فهو يرقب صوتها و ينتظر حديثها
ليملأ عمره هناء ومسرة:

تلفني كل مساء	تملأني عمري هناء
أي لقيادون وعد	تتمادي في العطاء
أرقب الصوت كأنني...	مترف قبل الثراء
وكأنني طائر يضي	إلى كل فضاء

إلى أن يقول:

وغدا يمضي الشباب	ويوارينا التراب
لا تعودين إلى الهاتف	ثمي بالرغاب
أحرام نلستقي أن	نرتوي قبل الغياب
وإذا نحن ارتويننا	تمرع الأرض اليباب (١)

وللهاتف اسم آخر هو (المسرة) لأنه يسر الحديث، ويهمس به، وحسبكم
أحاديث المحبين والعشاق فهي بحق أسرار يجب أن تحجب عن الحساد وتضان عن
المتربصين والعذال.

وهذا الشاعر الكبير (علي الجندي) يصف عبث الغيد الحسان وتكر النساء وتغير

(١) ديوان (معاً).

أصواتهن فقد حدثته إحداهن بواسطة التلفون فلما سأها من تكون قالت (وهل يخفى القمر) ثم سلمت مودعة واعدة أن تتكلم في وقت آخر:

يا حديثا في المسرة	لقن القلب المسره
من حبيب لو أراني	وجهه ما كان ضره
يؤثر الحب سماعا	أيرى الحب معره
واصل (الأذن) وما جاد	على (العين) بنظره
وعناء أن يود المرء	من يجهل أمره
أله في ذلك عذر	ليتني أعرف عذره
لا أرى العيش بصاف	لي أو أكشف أمره
أيها المهدي على البعد	إلى سمعي دره
والذي حال به القلب	من اللوعة جره
والذي بلبل فكري	وكسا عقلي حيره
والذي يكتنم حبي	والذي يظهر غيره
لا تلذ الفرحة عيني	أو أرى وجهك جهره

ونار انتظار محادثة من حبيب بجوار الهاتف لا يعرفها إلا من عاناها وتكمل من أجلها (فلا يعرف الشوق إلا من يكابده) كما قيل وقد قالت إحداهن لعل الجندي سأكلمك بالتلفون في ساعة حددتها (في الليل) وسهر شاعرنا العاشق الوامق بجوار الهاتف متحفزا منتظرا ممينا النفس بحب جديد ولكن من وعد لم يوف ومضت ساعات طوال ولم تتكلم حسبها الله ونعم الوكيل ، فقضى الشاعر البائس اليائس بقية ليله ساهرا يتقلب على جمر الغضا :


وعدت بالكلام (ليلي) ولو جا	دت لكان الكلام براء الكلام
رب لفظ منها شفى غلة الصب	وندى جوانح المستهام



ليس قولاً ما فات سمعي بالأمس
وغناء الصبا ووسوسة الحب
ودواء الضنى وتسليّة الهم
ليت شعري ما عفاها عنه حتى
مرهف السمع للمسرة أشكو
وأناجي أسلاكها بدموع
وهي صماء لا تحيى بعينها
ما عليها لو أنها حملت عني

ولكنه هــدِيل الحمَام
وهمس الهوى ونجوى الغرام
وبرد الحشا ورى ... الأوام
تركنتني فريسة الأوهام
برج وجدي لها وفرط هيامي
من فرادى منهلة وتوأم
ولا حرقتي ولا آلامي
عتاباً إلى رشيّق القوام (١)

وللشاعر إبراهيم برّي قصيدة راقصة وثابة نسوقها بلا تقديم :

هاتفك العاشق يسمعي
يربطني في سماعته
روحي بالسلك معلقة
صوتك في الهاتف تغريد
يحملني بين جناحيه
ووراء الغيم يراقصني
يأمر عن بعد فألبي
وإذا ما قلت: أنا آت ..
وأحس فؤادي يغرب في
وتصير أزهـر شرفتنا
صوتك أعشقه  **أعبد**
كم غازلني كم مازحني

كلمات الشوق الملتاعة
فأظّل بقرب السماعه
وبصدري عشرون إذاعه
حلوا استعذب إيقاعه
بغلاله ريش لماعه
يعطيني يده وذراع
فالأمر له ولى الطاعه
يمتد الأنس على القاعه
جنبي لدقات الساعه
تعطي أزهاراً مضواعه
وأحب نداءه وسماعه
فأزال الهم وأوجاعه (٢)

وللتلفون ذكر مكرر موصول في شعر نزار قباني وأنا موردون له قصيدتين كلتاها

(١) أغاريد البحر.

(٢) ديوان عيناك .

بعنوان (تلفون) يخاطب في الأولى المحبوبة (الثغاء) وما أحلى محادثة الألتغ فهو يحرف بعض الكلم عن مواضعه فينقلب خطأه إلى صواب لدى الأحياب (وكل ما يفعل المحبوب محبوب).

أحلى من المعزف والمعازف	همستك الحلوة في الهاتف
على عقيق الأحمر الواجف	لثغاء .. قولي: إنني ذرة
دمي للموعد الخائف	لا تقطعي سحبة قيثاره عني ..
في مسمعي، كالوتر الراجف	حنجرة رائقة .. زقزقت
تمثلت كالحلم الطائف	من صاحب الميعاد .. مجهولة
إلى لقاء مزهر وارف	فم يناديني حنون الصدى
رائحة القميص والسالف	أكاد أستنشق رغم المدى
وحى صدرها العاصف	لهائها عندي ... وأنفاسها عندي
على شريط، دافئ عاطفي	قد التقينا قبل أن نلتقي
براعما من بوحك الخاطف	تفجر السلك ندى ... واكتسى
فزقزقي .. قلبي على الهاتف	أن توجدني وحيدة ليلة

وفي قصيدته الأخرى يدعوها أن تكلمه ولو بالكذب فقد عادت لمحدثته بعد مقاطعة دامت خمسة أشهر كوامل، يقول:

سكب النار على الجرح القديم	صوتك القادم من خلف الغيوم
ورماني نجمة بين النجوم	مد لي أرجوحة من نغم
فاتركيني لدخاني وهمومي	من ترى يطلبني؟ مخطئة ..
فلماذا جئت تحين هشيبي؟	أنا جرح مطبق أجفانه
تحت عصف الريح في الليل البهيم	رقمي، من أين جئت به
بين أوراقك كالطفل اليتيم	بعد أن عاش غريبا مهملا

عدت يا صاحبة الصوت الرخيم
وطويينا قصة الحب العظيم
بعد ما ألقيت حبي في الجحيم
بالحديث الحلو.. والصوت النغوم
كان يوماً جنتي.. كان نعيمي
فأنا -بعد- على حبي القديم
واصدحي مثل عصافير الكروم
عمرت لي منزلاً فوق النجوم

كيف.. من بعد شهور خمسة
حبنا.. كان عظيماً مرة
أتقولين.. (أنا آسفة)
لم أعد أخدع يا سيدتي
صوتك العائد لا أعرفه
حلوتي.. بالرغم مما قلته
داعبي كل مساء رقمي
كلمة منك ولو كاذبة

وللشاعر السعودي غازي القصيبي في الهاتف قصيدة مائعة، فالحديث مع المحب
غير مملول مهما كان مستواه حتى وإن كان كلاماً بلا معنى :

سوق عن رعدة الفؤاد المعذب
مذ أقبل الليل لم تزل تتقلب
د قصوراً على مشارف كوكب
سوق لحناً من السعادة أعذب
عليها فالأفق جوعان أجذب
ي إذا صوتك الحبيب تغيب

حدثيني عن الهوى عن جحيم الش
حدثيني عن الضلوع التي
حدثيني عن الخيال الذي شا
وبنى جنة يرتل فيها الش
أتخيلت قفرة ضنت السحب
عذبة الصوت ذاك حال ليال

ونعود للشاعرة (روحية القليني) مرة أخرى من مصر، فقد مضى يومان دون أن
تسمع صوته، وهي تتعجل الساعات وتتصبر للقاء وتغبط جارتها إذا صاح هاتفها
وجلجل رنينه :

وتعثر اللحن الذي أهواه
وحدي أعيش على صدى نجواه
وأصبر اللهفات كي ألقاه

يومان لم أسمع حديث هواه
ماذا جرى يا هاتفي إتني هنا
أتعجل الساعات وهي طويلة

لا تتركني للضياع وأرسل لحن الهوى يحكي حديث جواه
انقل لسمعي صوته مترنما فالليل لحن صامت لولاه
ويطول ليل الساهرين على الشجي وعلى الدموع فأه ما أقساه

* * *

لرنين هاتفك الشجي يهزليل دجوني
وخلاله صوت كأنغام الهوى يشجيني
من أجل حبك شاعري أحبت سهد جفوني
مهما يظل ظمأى وحرمانى وطول حنيني
فخيالك الساري يمر بخاطري يحيني

* * *

فمتى ستنطق قد كفاني في اللظى يا هاتفي يومان
ذقت المرارة والأسى في وحدتي وتخاصمت شفتان
إن صاح هاتف جارتى ضمته في لهف إليه يدان
وأكاد ألتهمه وأحكي في عتاب قصة التحنان
لكنني أرتد خجل ليته قد كان لي ودعاني
يومان ساد الصمت في قلبيهما واغروقت عينان
وأنا على قلقي أذوب بحيرتي وأظل في أشجاني
هلا ترفق هاتفني وأذاعه شدوا بغير لسان
خطرات قلب لا هف .. فمتى ستنطق قد كفى يومان (١)

* * *

مَنْ يملك الهاتف يشغل به .. لا يطيق له بعدا .. فقلبه معلق به .. إذا غاب صوته
ضاق « صدره وأحس بأسر الوجود » ..

(١) لك أنت.

والشاعرة ذات مزاج رقيق .. يعمها السرور كلما جاءها نبأ من صديق أو صوت من حبيب .. فحديثه «يموج مع الصبح عطرا يفوق شذاه الورد» .

ولصوت الهاتف في أذن الشاعرة المتشوقة نغمات عذبة ورنين محبب .. وللهاتف عند أصحابه مواعيد سرور .. وله في مطالع الأيام سعد وبشير ..

وكم من صواحب للهاتف يحتضنه كالحيب لا يطقن له شريكاً كأنهن يغرن عليه! ..

وقد قالت الشاعرة معبرة عما يحمله قلبها من حب وعشق لرنين الهاتف بالكلمات التالية من قصيدتها «لا تشغلي الهاتف» :

محفاك

فموعده الآن حلو الوعود
وأحيا بيوم جديد سعيد
يشير فأغدو له ما يريد
وومض حياتي وسحر الوجود
وليس سواه قديم جديد
لأن هواه هوأى الوحيد
ولو بحديث بدا من بعيد
وعطري يفوق شذاه الورد
وأحسب أنني بأسر القيود

لا تشغلي هاتفي
يناجي خيالي بأنغامه
فلا تشغلي الوقت وقتي له
ولا تدهشي إنه نبض قلبي
وقصة عمري تترجم حبي
ودنياي تحلو به وحده
إذا مريوم ولم ألقه
حديث يموج مع الصبح عطراً
فقلبي يضيق برحب الوجود

محفاك

فأحرم من نغمات الرنين
فيقطع باللحن صمت السكون
بنجواه همسا يثير الشجون
وأحفظه في سواد العيون
وكل أسى في هواه .. يهون

لا تشغلي هاتفي
ومن صوته في السكون يغني
أعيش على الكلمات وأحيا
أعد له في الخيال لقاء
أسامح دنياي مهما قست

وكل له في هواه شؤون	خيال يعطر كل حياتي
حديث الجوى والهوى والفنون	أنا في انتظار حديث القلوب
حديث يهدد دمعي الحزين	فلا تشغلي هاتفي إنه
يضيق وأخشى عليه الظنون	أخاف إذا ما أطلت الحديث
هواه الذي صنته في الجفون	فيحسب أنني تشاغلت عن
لغير هوى ملهمي لن يكون، ^(١)	ولو أنه واثق أن قلبي

* * *

وما زالت عينها على الهاتف وسمعها معه .. تطير إليه مسرعة .. عندما تدق الساعة مؤذنة بالرابعة .. «حديث رقيق يهز المشاعر .. ما أروع» !! .. «ففيه حنان يذيب الصخور» .

«تعود سمعي شجى صوته على نغمات الهوى والشعور»
الهاتف أيضا .. ودائما الهاتف .. العين عليه ، والسمع إليه ، والكلام منه وفيه والحديث يطول في «الحكايات المشرقات» ..

ليت شعري ماذا كان الناس فاعلين بلا هاتف؟

لقد حق للشعراء أن يقولوا «فيه» و«به» بالألوف ..

.. عفوا ... بل وأن تقول «الشواعر» عبّره ما تقول .. وطارت الشاعرة (روحية القليني) إلى هاتفها مسرعة على نغمات الهوى عبر حديث رقيق يهز المشاعر والأحاسيس فقالت قصيدتها (الساعة الرابعة):

أطير إلى هاتفي مسرعه	إذا نطقت ساعتني أربعه
دوائر ستأ له طيحه	أدير على لهفات الفؤاد
إلى حكاياتك الممتعه	وحين يرد أقول بشوق

(١) ديوان حنين - قصيدة .. لا تشغلي الهاتف .. لروحية القليني .

وأصغى بقلبي كأني معه	فيحكي حكاياته المشرقات
يعطر جو المنى في دعه	وأستاف عبر الأثير شذاه
يهز الشاعر ما أروعه	وعبر الأثير حديث رقيق
أطيل السكوت لكي أسمع	وأصمت والقلب يهيض وجدا
ولا نلتقي فيه عبر الأثير	إذا مريوّم بعمر هوانا
ونومي من العين شوقا يطير	أكاد أجن أضيق بيومي
كأن الحبيب مضى من شهور	وأسأل كل الذين أراهم
لما قد يجول وما قد يدور	ولست بطول السؤال أبالي
على نغمات الهوى والشعور	تعود سمعي شجى صوته
ففيه حنان يذيب الصخور ^(١)	تعود قلبي هوى وده

ونظّل مع ليل الهاتف الرّوحي، الهاتف السهران كالعاشقين.. يسري عبّر الليالي
فهو رسول السحر، وفيه نبض فؤاد المحبين. على رغم الحذر من العاذلين وهو يزيل
الملال، ويمحو الضجر. وكم من أناس لا مؤنس لوحدهم غير هذا الأنيس وما حيلة
ذوي الكبرياء في الحب، وذوات الكبرياء في الهوى وما أحلى وأعذب كلمة (ألو)
برنينها الساحر.. عبر الأثير تمحو الضجر من سكود الليل ووحشته.. وتزيل الملal
والهموم لأناس لا مؤنس لهم غير هذه الكلمة:

وفي الليل يسري رسول السّمر	أقول (ألو) فهل من خبر
وعبر الأثير وجيب فؤاد	يترجم حباً برغم الحذر
تكلم لعلّي بصوت حنون	أزيل الملal وأمحو الضجر ^(٢)

والعشق والجمال والأحلام و«الهواتف» كلها من شواغل نزار قباني بكلامه
الهامس كنجوى السحر، مما يعتاده هذا العاشق أبداً.. ولا يسع ذلك كله حديث
هاتف، ولا ديوان من شعر.. وإنما هي حياة كلها حب وشعر.. ووصف لأطايب

(١) ديوان غير قلب.. قصة الساعة الرابعة.. روحية القلبي.

(٢) ديوان أنغام حاملة.. قصيدة كبرياء الحب.. روحية القلبي.

الحسن، و«عريضة».. وكيف يشاء.. وقاموسه الحلوى.. لا يخطئه المذاق.. فكل ألوانه من «اللازورد» والأرجوان، وكل عطوره من ذوب يحس ولا يُصنع، وكل ما عنده من ذات نفسه الهمسة، والعازف، والدرة، والأحمر، والوتر، والحلم، والبراعم، والأنفاس، والسالف، والقيثارة، وقد تفجر «سلك الهاتف» ندى واكتسى «براعما».. فقلبه على الهاتف.. لا يزال.. كما هونزارقباني.. نشوان.. يرى في الغزل العباد، والوطن، والحياة...

و يصف شاعر الريف السعودي (مفرح السيد) المقيم ذو الحس المرهف.. والوجدان، ويعبر عن لهفته وارتجاف قلبه ومشاعره حين التقى بالمحجوبة في لقاء خاطف كالنغم الحالم عبر الهاتف يقول:

طلبته في الهاتف	في لهجة كالحائف
فجاءني كلامها	كنغم من عارف
في رقة فتانة	تثير من عواطفني
قلت لها من هذه	ألست بنت الناصف
قالت نعم من ياترى	يطلبني في الطائف
فقلت شخص مغرم	غرامه كالعاصف
فخلت منها بسمة	تبدو على الشفائف
قالت أما ودعتني	يوم اللقاء السالف
فقلت إنني راحل	فزدت في مخاوفي
وجاء صوت قاطع	وإن بدا كالأسف
قد انتهى قد انتهى	وقت اللقاء الخاطف

ومسك الختام رائعة الشاعر السوري الشهير الجهير «عمر بهاء الدين الأميري»، فقد كتبت رقم هاتفه بميل مكحلتها، ثم كان حديث بينهما، والحديث ذو شجون وفنون وفنون:

القرص دار وصوتي في تهدّجه
وقد رأيتك رغم البون مقبلة
أحسست من صدرك الظمآن وقدته
وحارقولي وكم في النفس من فكر
كتبت بالمرود الغالي الذي لثمت
على من راحها رشف وغلغل في الشـ
المرود المستمد العطر أتمله
المرود (النائر) الكحل الدقيق على

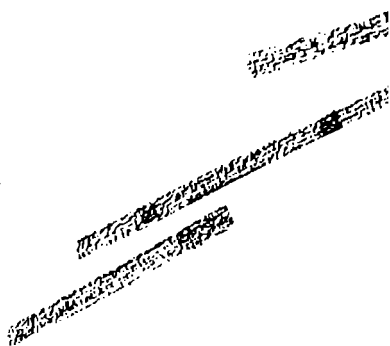
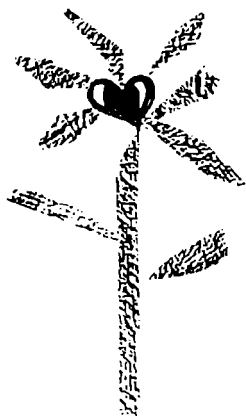
يكاد في الأذن يلقي وجده نارا
والصب أنفذ خلق الله أنظارا
كأنما جمره في أضلعي ثارا
حارت وكم من هوى في القلب قد حارا
شفاهه عينك الخضراء تكرارا
فاه رأس لسان في اللمى دارا
من عطرك اللذ حتى صار معطارا
جفنيك سحرا وإغراء وأشعارا

كتبت والشجر مزدان ببسمته
كتبت في هاتفي أرقامه فسرى
يا أخت همي وحرماني وموهبتي
هل انقضى المبدأ المكنون في خلدي
هل ألبس العمر نكرا بعد عفته
أم أمسك الداء قد جالت قواصمه
أحيا على ظمأ، والكأس مترعة
بركان قلبي عز الصبر يمسكه
يا أخت همي وحرماني ومشكلتي
بين الهدى والهوى ذابت حشاشتنا

والقلب يزفر في الأضلاع قيثارا
بين الهواتف خفق القلب تيارا
ماذا أبثك؟ أبح القلب أسرارا
في الروح والعقل إيمانا وإكبارا
وأعقب الصبر آثاما وأوزارا
حى بجسمي وأوصالاً وأغوارا
تدعوفمي ودمي المكبوت قد فارا
يكاد يقذف بي في الكون إعصارا
أشكو إليك كما تشكين أقدارا
قتلاهما نحن، ممن نطلب الثارا (١)



الرجح وصلتها بالحب الأشتاق والعواطف



الريح وصلتها بالحب والأشواق والعواطف

أيها السادة اسمحوا لي قبل أن أختتم موضوعي أن أتحدث عن الريح، وصلتها بالأشواق والعواطف؛ ولا شك في أنها وسيلة رابعة طالما استعملها المغرمون والعشاق، واتخذوها بربداً لنقل عواطفهم، وإيصال أشواقهم إلى عشاقهم ومن فتنوا بهم، تلكم هي (الريح) التي طالما حملوها سلامهم أو استشموا عبرها ريح الحبيب.

ولا أبالغ إذ أقول ربما كانت الريح من أقدم وسائل الاتصال بين المحبين، ولا غرابة أن تعبر عن الحب والأشواق والعواطف مادامت شقيقة للروح والريحان.

بل وما يلفت النظر في هذا المجال أن الريح هي الوحيدة التي تغتنى بها الشعراء قديماً—أقدم من البرق—وخاطبوا طالبين منها توصيل السلام والشوق، ونقل لواعج الغرام. وكثيرة تلك المطالع المغتاة التي كانت الركبان تحذو بها، وكان الأحاب يتغنون بها، ولي أن أضرب مثلاً على ذلك المطلع الشعبي المغتنى في بعض الديار الشامية:

«يا ريح ودي سلامي إن جيت نحو الدار
حي المنازل، وحي ساكنين الدار».

ونعود إلى التليد والجديد في حديث الريح. فبعض الشعراء الجاهليين يطلق على

الرياح اسم «الرامسات»، لأنها تغطي الأطلال بالأتربة وتذرو عليها الرمال، وهي تسمية يطلقونها على الناقة أيضاً لصلة بينهما.

وأكثر الرياح في الشعر الجاهلي هي ريح الشمال، وتكاد تبلغ نسبتها بين جميع صور الرياح ثلثين من مائة.

وصورة هذه الرياح في الشعر عبوس جهام، صر في الشتاء على حد قول النابغة وهو يشبه ناقته بثور متوحش في وحوش وجرة—وهي فلاة بين مكة والبصرة ليس فيها منزل فهي مرب للوحش—أمطرت عليه السماء ليلاً وساقته ريح الشمال العاتية، يقول:

كَأَنَّ رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا يَوْمَ الْجَلِيلِ عَلَى مُسْتَأْنَسٍ وَحْدِ
مِنْ وَحْشٍ وَجَرَةٍ مُؤْشِي أَكَارِعِهِ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسِيفِ الصَّقْلِ الْفَرْدِ
أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجُوزَاءِ سَارِيَةٍ تَرْجِي الشَّمَالَ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرْدِ

وريح الشمال تروي الوجوه، تأتي من قبل الجحجر—منازل ثمود—ويعتز الشعراء بأن أقوامهم يطعمون الفقراء عندما تهب ويملاؤن الجفان بالإبل السماء. والشمال شديدة اللفح في الصيف، سهام تثير الغبار، فتعقي على الطلول.

وقد يسمّى الشعراء هذه الرياح بالريح الشامية^(١). وتقترن هذه الرياح بذكر الغراب فكأنها الغربة والابتعاد، وقطع الوصال. وفي شعر عبيد بن الأبرص^(٢) قصيدة يربط فيها الشاعر بين هذه الرياح والغراب، فكلاهما شؤم:

وَأَبُو الْفَرَاخِ^(٣) عَلَى خَشَاشٍ هَشِيمَةٍ مُتَنَكِّبًا رَابِطَ الشَّمَائِلِ يَتَعَبُ

وريح الشمال تحمل رسائل المحبين، يقول أبو نواس:

(١) أنظر ديوان طرفة ٩١١، وعمر بن قميصة ٤٤، وبشر بن أبي خازم: ١٨.

(٢) الديوان: ص ٣١.

(٣) الغراب.

هبت لنا ريح شمالية أتت إلى القلب بأسباب
أدت رسالات الهوى بيننا عرفتُها من بين أصحابي

وثانية الرياح هي الصبا، وتبلغ نسبة ورودها في الشعر زهاء ثلث ونصف الثلث في المائة و تصوّرُها الشعراء ريحاً رخية (غير قرة) (١)، تهبّ نَسْماً وتهبّ هوناً، ويشبه بها الشعراء عقب النساء، ويجعلونها حَمَلَة بنفح المسك، وأريج القرنفل، يقول امرؤ القيس:

إذا التفتت نَحْوي تَضَوِّعَ ريحُها نسيم الصّبا جاءت برياً القرنفل
و يقال لها الرّيح الرّخا، يقول امرؤ القيس أيضاً:

رُخاء تَسُحُّ الرّيحُ في جنباتها كساها الصّبا سَحَقَ الملاءِ المُدَبِّلِ
و يقال لها الجنوب والغربية، وهي أشرف الرياح لما اشتملت عليه من اللطف والطيب اتخذها أهل المحبة رسولاً إلى الأحباب وللصبا موقع خاص من العشاق ومنزلة رفيعة لديهم، يقول مهيار (٢):

يا نسيم الصبح من كاظمة شد ما هجت الجوى والبرحا
الصّبا إن كان لا بد الصّبا إنها كانت لقلبي أروحا
وهم يسألون النسيم عن أحوال الحبيب، و يستفسرون منه إذا غاب عن ناظرهم يقول أحدهم:

قد سألت النسيم وهو خير بسؤالي إذ غاب وجهك عني
قلت هل ورد خديك غصّ قال: قد ضاع نشره قلت: متي

(١) أنظر ديوان طرفة: ١١٩.

(٢) مهيار بن مرزويه، شاعر كبير في معانيه ابتكار، وفي أسلوبه قوة. متوفى سنة ٤٢٨ هـ ١٠٣٧ م.

وبعضهم يراه دواء لأسى العشاق :

يدأوي أسى العشاق من نحوأرضكم نسيم صبا أضحى عليه قبول
بروحي من ذاك النسيم إذاسرى (طبيب يدأوي الناس وهو عليل)

وكأنه البريد ينتظره المحب بفارغ الصبر، فيرسل مع هبوبه تحياته وأشواقه،
ولكنها خرساء صماء وهذا مما يزيد ألمه، ويقر بكثرة الأشواق واللواعج التي لا
يخمدوها سوى القرب :

«وكم لي إذا هب النسيم تحية إلى نحوكم لوأنها تتكلم
وعندي من الأشواق ما لا يزيله سوى قربكم لا أوحش الله منكم
وحكى العلامة الزمخشري في الكشف أن (ريح الصبا) هي التي تبلغ الأنباء
للأنبياء عليهم السلام وذكر الواحدي في تفسيره (الوسيط) أن ريح الصبا هي التي
أرسلت ريح يوسف إلى يعقوب عليهما السلام عند قوله (إني لأجد ريح يوسف لولا
تَفْتَدُون).

ولذلك نجد العشاق يستخدمون هذه الرياح في حمل السلام وإبلاغ التحية .

استخدم الريح في حمل السلام لكم كأنما أنا في عصري سليمان
كأن يعقوب أنبأني بقصته فللصبا عند قلب الصب أشجان

ومن أطف ما قيل في هذا، قول أحد الشعراء :

إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا التسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذي أتلو عليهم ليتني كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

وبعضهم يمزج ريح المحبوبة بريح الصبا بريح الخزامى بللها القطر فتجتمع
الريح متبلة ممزوجة بريح المحبين :

فلو كنت ريحاً كنت رائحة الصبا بريح خزامى عالج بلها القطر^(١)

(١) المصون في الأدب: ١٩٨ مكتبة الخانجي، دار الرفاعي ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.



وثالثة الرياح هي الجنوب، وتقرب نسبة ورودها في الشعر الجاهلي أكثر من الثلث بقليل، وهي تصوّر الغيوم الحوامل (الواقع) وتأتي بالمرن الكثير يسبح الماء منها سخاً. وتشارك ريح الجنوب في تبليغ ما يقوله عاشق لا تنام له عين لأحبابه، ومن ذلك للقاضي الجرجاني:

يا نسيم الجنوب بالله بلغ ما يقول المتيم المستهام
قل لأحبابه فداكم فؤاد ليس يسلو ومقلة لا تنام

وقد تصوّر قسوتها حينما تعبت بالأطلال؛ ويسمّيها بعض الشعراء بالريح اليمانية فهبوبها من اليمن، وبين البرق والمطر واليمن رابطة قوية وأحد شعراء اليمن الفحول يطلب من الريح حمل رسالة إلى المحبوب، ويحمّله المريد، قال الشاعر القاسم ابن هتيمل^(١):

قل يا نسيم لأهل الصّال والسمر ما صدّ سامركم عن ذلك السمر
واشرح حديث الغضا والنازلين به وإن بخلت بشرح الكل فاختصر

ورابعة الرياح هي الدبور التي لا تكاد تظهر في الشعر إلا سافية ترمس الأطلال، وتهيل عليها الرياح. (ديوان بشر بن أبي خازم ص ٩٤).

وخامستها التكباء، وقد سمّاها الشاعر التميمي سلامة بن جندل المصرية، لأنها تهب من مصر، وتحدّث عن المطر الذي تحمله الريح المصرية فتهتك بيوت النعاج، وتقلّأ السواقي، وتتدافع السيول من فوق الجبال تجترف النبت والشجر (الديوان ص ١١).

أيها السادة أرجو ألا أكون قد أدخلتكم في متاهات دائرة الأرصاد الجوىّة،

(١) القاسم بن علي بن هتيمل من ناحية المخلاف السليماني. مدح ملوك عصره، وهو أحد أدباء اليمن الكبار، عاصر الملك المظفر ومدحه.
وله ديوان شعر، جمع العقيل مختارات منه، وطبعها، ومنه عدة نسخ خطيّة. أنظر: مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن: ص ٣٢٠.

لكنها الريح ، وما تحمله من أشواق المحبين وأنفاسهم .

وهذا شاعر الهوى والهام العباس بن الأحنف يخاطب المحبوب طالباً أن يرد عليه السلام بواسطة الريح :

وأنّي لأستهدي الرّيح سلامكم إذا أقبلت من نحوكم بهبوب
وأسألهما حمل السّلام إليكم فإن هى يوماً بلغت فأجيبني

وقد شغلت الريح حيزاً من دواوين الشعراء قديماً وحديثاً وأغلبه حديث الشوق والحب ، أو حديث القوة وضرب الأمثال ، وهذا حديث قديم جديد ، ومنذ أن سخر الله الريح لسليمان ، ومنذ أن جاء ذكر هذا في القرآن الكريم ، لا يفتأ الشعراء يذكرون تلك الريح أيضاً ، انظروا معي إلى الريح الطائفة التي يصفها أحمد شوقي في ديوانه وهو يخاطب بلقيس : (١)

وأنتك الرّيحُ تمشي أمةً (٢) لك يا بلقيس (٣) من أوفى الإماء
روّضت بعد جاحٍ أشبهت خيلَ جبريلَ لنصر الأنبياء

وما هو بالحديث المرجّم إنه استهلال الحديث ليتحدث عن الطائفة بريد البر والبحر :

وبريد يسحب الذيلَ على بُرد (٤) في البر والبحر بطاء
تطلع الشمس فيجري دونها فوق عنق الريح أو متن العماء (٥)
لسليمانَ بساطٌ واحدٌ ولهم ألف بساط في الفضاء

(١) الديوان ج ٣ : ١ .

(٢) مملوكة .

(٣) بلقيس صاحبة نبي الله سليمان الذي سخرت له الريح .

(٤) برد : ج بريد . و بطاء بطيء .

(٥) العماء : السحاب المرتفع الكثيب أو المطر .

و بعد فيا أيها القراء الأعزاء هذا حديث عن البرق والبريد والهاتف سقته لكم اليوم لتعلموا أهمية هذه الأقانيم الثلاثة وليعلم قبلكم العاملون في هذه الأجهزة أنهم يؤتمنون على أهم شيء لدى الإنسان وهى الأسرار والأشواق وما تحتويه ضمائر المحبين وتكنه صدور العاشقين. فوزارة البرق والبريد والهاتف هى وزارة الحب والأشواق والعواطف قبل أن تكون وزارة الأسلاك والفواتير وأعمدة الحديد وخياش البريد كما يحلو لخصومها أن يصفوها به. والريح، أعلموها بساط المحبين، وبريد العاشقين كذلك.

عبد الرحمن المعمر

من عصبة الأرباء



مصادر البحث

- | | |
|-------------------------|----------------------------|
| أحمد أمين | ١ — فيض الخاطر |
| محمد بن عبدالله الموسوي | ٢ — رحلة الشتاء والصيف |
| أحمد محمد الشامي | ٣ — قصة الأدب في اليمن |
| ابراهيم بري | ٤ — ديوان عيناك |
| ميشال نعمة | ٥ — ديوان معا |
| طاهر زحشري | ٦ — أغاريد الصحراء |
| طاهر زحشري | ٧ — رباعيات صبا نجد |
| عباس محمود العقاد | ٨ — ٥ دواوين العقاد |
| علي الجندي | ٩ — أغاريد السحر |
| فؤاد باشا الخطيب | ١٠ — ديوان الخطيب |
| محمد أحمد عيسى العقيلي | ١١ — ديوان السلطانيين |
| جورج صيدح | ١٢ — ديوان صيدح |
| شفيق المعلوف | ١٣ — ديوان المعلوف |
| محمد حسن عبدالله | ١٤ — ديوان الشعر الكويتي |
| عمر بهاء الدين الأميري | ١٥ — ديوان ألوان طيف |
| نزار قباني | ١٦ — ديوان الأعمال الكاملة |

- ١٧- ديوان تسايح قلب عزيز أباطة
- ١٨- ديوان هواجس أحمد الصافي النجفي
- ١٩- ديوان الشوقيات أحمد (بك) شوقي
- ٢٠- ديوان أبيات غزل غازي القصيبي
- ٢١- ديوان العباس بن الأحنف العباس بن الأحنف
- ٢٢- مجلة الأديب البيروتية عدد (١٢) السنة الثالثة
- ٢٣- مجلة قافلة الزيت عدد ذي الحجة ١٣٩٧
- ٢٤- ديوان في ظلال السماء محمد هاشم رشيد
- ٢٥- وحي الفؤاد فؤاد شاكر
- ٢٦- ديوان عبير قلب روحية القليني
- ٢٧- ديوان حنين إلى... روحية القليني
- ٢٨- الطائر الجريح ابراهيم ناجي
- ٢٩- ديوان على الأرض السلام محمد الجيار
- ٣٠- ديوان خليل مردم بك منشورات المجمع العلمي لدى دمشق

الفهرس

الموضوع

الصفحة

الإهداء	٩
مقدمة	١١
البرق في الشعر العربي	١٧
البريد في الشعر العربي	٣١
الهاتف في الشعر العربي	٥٩
الريح وصلتها بالحب والأشواق والعواطف	٨١
مصادر البحث	٨٩





المؤلف

- ولد بقرية سدوس بنجد عام ١٣٥٨ هـ .
- نشأ وترعرع وتلقى تعليمه بمدينة الطائف ولما نال نضجته نفسه على الطبيعة الساعرة والخيال الخلاب .
- بدأ حياته العملية موظفاً حكومياً بديوان رئاسة مجلس الوزراء ثم تولى رئاسة تحرير صحيفة الجزيرة فترة من الزمن .
- عمل كبيراً للمراسلين لوكالة الأنباء السعودية .
- عضو في جمعيات وأندية ومؤسسات تعنى بشؤون الثقافة والفكر مثل جمعية الأناضول جامعة الملك سعود بالرياض .
- عضو في مجلس إدارة مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر .
- له كتاب مطبوع بعنوان " المضيفات والممرضات في الشعر المعاصر " وله كتب أخرى تحت الطبع .
- شارك في عدة مؤتمرات وندوات دولية في الداخل والخارج .
- في عام ١٤٠٠ هـ أسس مجلة عالم الكتب مع الأستاذ عبد العزيز الرفاعي .